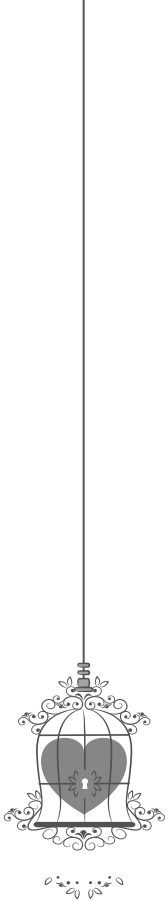

سَجينةٌ باسْم الحبّ

الطبعة الأولى
1440 هـ
2019 م

اسم الكتاب: سَجينةٌ باسْم الحبّ
التأليف: آمال عطية
موضوع الكتاب: قصة واقعية
المراجعة اللغوية: عبدالقادر أمين
عدد الصفحات: 152 صفحات
عدد الملازم: 9.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2019/2882
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 738 - 8

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

سَجينةٌ باسْم الحبّ

آمال عطية

دار البشير للثقافة والعلوم

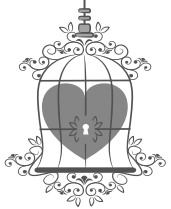

إهـــداء

إلى عائلتي مصدرِ إلهامي ودعْمي.

إلى روحِ الدّكتور **مصطفى محمود**.

إلى روح الدّكتور **إبراهيم الفقي**.

إلى أساتذتي في علم النّفس والهندسة.

إلى أستاذ عماد العدلي، كنتَ أيقونةً لإبداعي هذا العام.

إلى أخي الرّوحي **أيمن عبد الله**.

إلى كلّ مَن أثْرى نفسي وفكْري بكلمةٍ إيجابية أو سلبية.

إلى كلّ مَن مزّقه التّعلّق.

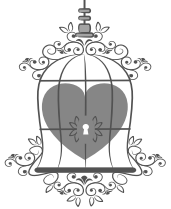

المقدّمة

رسالةٌ في قصّة، ترويها أصواتٌ حُبست داخلَ سجنِ الخوف من فقدانٍ أو غضبٍ أو بطش.

سجنت بأمْر الذين أقسَموا لهم أنّهم أغْلى مِن أنْفسهم تحت مسمّى أنّهم- فقط- مَن يعرف الصّالحَ لهم.

أصوات حُبستْ داخلَ مشاعر قاتلةٍ ظاهرُها الحبّ وباطنُها العذاب المقنّن، الذي يعبثُ بالرّوح ويقتل النفس.

رسالة يرْويها مَن تعلّقوا بآمالٍ زائفة، على أمل أنْ يجدوا السّراب حقيقةً؛ ولكنْ هيهات.

رسالة بصوتِ مَن قرّر الانسحابَ، ولكنّه لم يقوَ، واستمرّ تحت وطأة القهر حتّى أُنهكت روحه، وفي النهاية.. قرّر العودةَ إلى حيث كان؛ بالفرار أو الانْسحاب المعْنوي أو المادي.

رسالةٌ خياليّة حقيقيّة نطقتْ على الورق، معبّرة عن أصْحاب تلك الأصواتِ المحبوسة، علّها تساعدهم أن يجدوا فيها الأملَ بعدما سَمِعوا صوتًا يعبّر عنْ يأسهم دونَ خوف أو حساباتٍ لأحد، مُتمنّية أن تدلّهم على القرار الصائب.

رسالةٌ مليئةٌ باليأس، ولكنْ مغلّفة بالأماني في التحرّر من عبودية المشاعر، ووصول القلوب إلى قناعةٍ أنّ المُعْضلة ليست في سجّاني الرّوح، ولكنْ فيمَن سمح لهم أنْ يُحكموا قبضتَهم عليهم، فيمَن جعلوا قلوبَهم طريقًا مستباحًا للجميع.

رسالةٌ قصيرة، طويلة بتفاصيلِها على مَن عاش أحداثَها على أرض الواقع، وعُصر قلبُه تحت مرور، ومرارةِ أيّامها.

رسالةٌ في قصّة خطّطت سطورها آملةً أن تكونَ أحداثُها عبرةً لمَن قرّر أن يستبيح نفسًا وجدتْ فيه العالمَ وما حوى، ولم يشفعْ عنده تذلّل أو دموع أُذرفت ليال طوالًا، وكأنّه يتلذّذ بتلك الآلام، ولا تكتمل حياتُه دونَ وجود تابعٍ ذليل له.

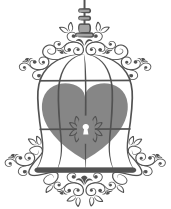

رسالةٌ مكتوبة، مرئيّة، آملةً أنْ تكون فيها عبرةٌ لَمن قرّر أن يستمرّ تابعًا لمثل تلك القلوب، رغم إدراكه لعذابه، لكنّه يتلكّأ حالمًا أن يكونَ تلكّؤه فرصةً لإحياء قلوبهم.

آملةً أنْ يرى السّجينُ فيها أنّه هيهات أنْ يحيي المَوْتى، وأنّ تلكّأه لن يجني على قلبه إلّا مزيدًا من الحصون الهشّة المهدّدة بالسقوط إذا اتّكأ عليها أحد.

رسالةٌ تنْطوي خلفَ رحلات، كلّ رحلةٍ.. تفاصيلُها تهزّ القلب من أعماقه، وتغيّر خريطة الفكرِ برمّتها.

رحلاتٌ أقلعَ فيها- أو في بعض منها- كلّ مَن اختارَ أن يكون حبيسًا داخل أيّ شعور، آملًا أن تكون رحلةً مليئة بالسعادة والاستجمام.

رحلاتٌ قديمة دُفنت في الذّكريات المؤلمة، وبقي أثرُها القاتل، أو رحلاتٌ مازالَ بعضُنا ينتوي أنْ يقوم بها ظنًّا منه أنّه سيتعيد السّعادة الغائبة.....

والآن عزيزي السّجين، يشّرفني أن نقلعَ معًا لنرى رسالةً مِن رحلات إحْداهنّ، ولكنْ.. وأنتَ تُقلع معي ارْتدِ حزامَ الأمان.

حزامُ الأمان المتمثّل في قرارِك الصّارم أنْ تنقذك، حتّى ولو كان المتبقّي منْك صوتك الذي تصرخُ به كلّ ليلة، أو عينيك التي تبكي بها كلّما ضاق عليك الخِناق.

وأتعهّد إليك بأنّك رويدًا رويدًا ستلمْلِم شتاتك، وتعودُ إليك، ولكنْ بثوبٍ جديد، وستكونُ أنت موطنك حينما تتكالبُ عليك الدنيا.

وذلك بإذن الله إذا أخذت الرّسالة على محْمل الدّرس الذي لا يُنسى، وأخذت بعدَها القرار الصّائب المدروس من جميع جوانبه.

آمال عطية

الرّحلةُ الأولى

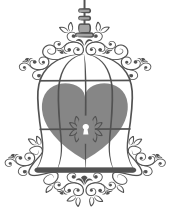

كنتُ طفلةً في الخامسةِ من عمري عندما أدركتُ أنّي أفتقدُ الاحتواء، أفتقدُ الحَنان، أفتقد أيّ اهتمام، فكنت ابنة لأبٍ لا يعرف غير لغةِ السّوط حينما لا تُنفّذ أوامره، وأمّ ترى أنّه دائمًا على حقّ، أو كانت لا تقوى إلّا على فعل ذلك.

كنتُ أتوقُ إلى أيّ شخص يضمّني إليه، كان قلبي يرقصُ فرحًا، وأذني تطربُ حينما أسمعُ مديحًا مِن أيّ شخص.

لا أذكرُ في طفولتي غيرَ شعورِ الرّعب، الرّعب من النظرات التي لنْ أنساها، الرّعب مِن الضّرب، لا أتذكّر غير صوت الصّفعات على وجْهي، وصوت الصّراخ فيّ...

كنتُ طفلةً أمتلك جميعَ مقوّمات القيادة والذّكاء المفرط، ولكنْ وكأنّ هناك إصرارًا على أن أفقدَ هذه الميزات .

كنتُ ممنوعةً حتّى من اللّهو واللّعب كطفلة، مهمّتي كانت- فقط- تحمّل مسئولية إخواني، وإن قصّرت وغلبتني طفولتي لا أبيتُ ليلتي دونَ إهانة؛ إمّا بالسّوط أو باللسان، وأنا لا أدري لماذا؟! ولا أقوى حتّى على أن أوجّه لهم هذا السؤال.

أُجبِرتُ على ارتداء الحجاب، وإقامة شعائر ديني بنفْس أسلوب القهر، وأنا لا أزال في هذه السنّ الصّغيرة، وتنصبّ عليّ الويلات لو نسيتُ أيّ شيء منها.

ومرّت الأيام، وأصبحتُ يسمّونني مراهقة، أصبحتُ أكره أيّ شيء يدعو إلى الالتزام، حتّى ولو بديني، ولا أقوى على المناقشة أو التّبرير، ولماذا أحاولُ وأنا لا أجدُ إلّا اللانقاش (وهوّ كده وخلاص!) (واحْنا أدْرى بمصلحتك)، وازدادَ السّجن إحكامًا عليّ، أعيش حرمانًا شديدًا من كلّ شيء برغم أنّي أنفّذ ما يمنعوني من فعْله دونَ علمهم، ووقتَها أشعر بالانتصار ممزوجًا بالحزن لأني

أرى أنّي لا أفعل شيئًا يستحقّ أن يُفعَل في الخفاء؛ فأعيش معذّبة بتأنيب الضمير.

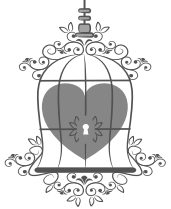

أصبحتُ سجينةً بداخلي، ولحظاتُ السعادة لا أتذكّرها، وما زاد الطّين بلّة على نفسي الهزيلة؛ أنّي أصبحتُ أرى في عين أمّي أنّني قبيحةٌ وسمينة نتيجةً لكلام أخواتها الشّقروات، وأصبحتْ لا تتوانى أن تثبت لي هذا الأمرَ في كلّ مرّة، وفي كلّ مرّة أنظر إلى مرآتي ولا أرى ما تصفُه أبدًا.

أصبحتُ لا أرى في عينِها غيرَ الاحتقار، ودائمًا تخبرني أنّني تافهة، ولا يرقى رأيي إلى رأي طفلة، لا أدري ماذا كانت تنتظر من طفلةٍ فى الخامسة عشر من عمرها؟!

وبالتالي، أصبح كلّ مَن حولي يروننني بعينِ أمّي، فقد كانت لا تتركُ مجلسًا إلّا وتتحدّث فيه عن عيوبي أمامَ الجميع، تعلمين.. إنّ كنَيَتي أصبحت بين عائلتي (الطّويلة التّافهة).

أصبحتُ أبحثُ عن صورة الأمّ التي أحلم بها بين صديقات أمّي وأمّهات أصدقائي، وأنا أرى عطفَهم على بناتهم، وإعلاءهم لقيمتهم برغم أنّي أراني أمتلكُ جَمالًا وذكاءً لا يضاهي جَمالَ وذكاء بناتهن.

كذّبت كلّ ما تراه عيني فيّ، وصدّقت كلماتِ أمّي السّاعية للكمال، دُعست تحتَ الأرجل دونَ مبالغة، انْهارت قيمةُ نفسي، كنت أهانُ مِن كلّ مَن حولي، وأخاف أن أنطقَ ببنت شفة دفاعًا عن

نفسي، بل كنت ألومُ نفسي ليلَ نهار، وأؤنّبها ولا أرى غيرها الخاطئ، وكلّ مَن حولي على صواب، كنتُ أسعى حتى انقطعتْ أنفاسي لإرضاء الجميع، حتّى ولو على حساب نفسي على أمل أن أجدَ منْهم مَن يشعر بقيمتي.

ذكائي الشّديد كان يجعلُني أرى النّاس مِن داخلهم مِن قبْل أن يتكلموا، ولكنّ ضعفَ ثقتي بنفسي كان يجعلني أُكذّب ما أشعر به، وأستمرّ معهم حتّى يقرّروا طعْني في قلبي بعدما صارَ وجودُه ضعيفًا ولا يقوى إلّا بهم.

فقدتُ ثقتي بنفسي، بل إنْ شئتِ قولي: لم يكنْ في معجم كلماتي جُملة (ثقة بالنفس) أصلًا، وأصبحتُ أتلمّس الكلمات الإيجابية ممّن حوْلي لأستريح من هذ الاحتقار المرير لذاتي، ولكنْ هيهات، مَن في عالمنا يجد شخصًا ضعيفًا فيقوّيه ولا يقوّي بضعفِه؟

كرهتُ نفسي، كرهتُ النّاس، ولكنّي كنتُ أحتاج إليهم، ولا أستطيع أن أكونَ بمفردي أبدًا.

الرّحلةُ الثّانية

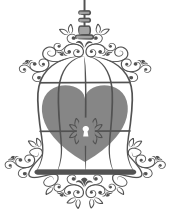

وبهذه النّفسيّة دخلتُ عالمي الجديد، عالم الجامعة، كنت صديقةَ الجميع كعادتي دائمًا، وأوّل مَن يهون على الجميع، كعادتي أيضًا.

كان عالمًا غريبًا عليّ، أراه مليئًا بالصّخب والتصنّع الذي لا أطيقه، ولكنْ كعادتي حينها كنتُ مجبرةً عليه لكي أرى الإعجاب في عيونِ مَن حولي، أو كنت أظنّ ذلك.

ومرّ بي التّيرم الأوّل في كليةٍ أجبرتُ- أيضًا- على دخولها، تيرمٌ رأيت فيه من التّيه والتخبّط ما لمْ يمرّ عليّ في طفولتي البائسة التي كنتُ فيها أتغذّى على الآمال في الغد، وأحلام يقظة أنّه سيكون كما أريد، ولكنْ للأسف ازدادتْ صورتي الذّهنية التي رسمتها لنفسي منذ الصغر وضوحًا، إنسانة مهزومةٌ مجرورة بطوْق من حديد، وبرغم شعوري الذى كان يلحّ عليّ دائمًا بأنّي لم أَخلق لأكونَ بهذه الصّورة إلّا أنّي مازلت أُسحبُ وأُسحبُ حتّى وصلت إلى القاع، قاعِ الهزيمة المدوّية المتكرّرة.

كنتُ أسمع- كلّ يوم- صوتَ ارتطامٍ روحي في تلك الهاوية بسبب كلمةٍ أو نظرةٍ أو ضحكاتِ السّخرية، وصوت ارتطامِها مرّة أخرى عندما تلومني نفسي على ضعْفي وقلّةِ حيلتي أمامَ كلّ ذلك.

وجاء التّيرمُ الثّاني، وجاء ما لمْ أكن أتوقّعه برغم أنّي كنتُ أحلم باليوم الذي يحدثُ فيه هذا، ولكنّي كنت أعتبره حلمًا فقط .

جاء زميلي الذي كانت تلاحقني نظراتُه مِن أوّل يوم في الجامعة، وكنت أنكرُ ذلك، وأتّهم نفسي أنّها أدمنت أحلامَ اليقظة، وأخبرني بمنتهى الجرأة: (أنا أحبّك).

تعلمين! كَذّبت نفسي للمرّة الثانية، بل المضْحك أنّي أشفقت عليه، كيف تحبّ امرأةً بهذا القبح وهذه الشخصية! لا يصحّ يا صديقي؛ أنتَ أخي فقط.

كان هو أوّلَ شخصٍ في حياتي يحنو عليّ بنظرة، بل اسْتاءَ مِن كلماتي، وأخبرني أنّي جميلة، وروحي لا تعوّض، ثمّ ضحك، ووجّه إليّ سؤالًا: تعلمين بماذا أسمّيكِ؟

نظرتُ إليه، وبداخلي شوقٌ لكي يكمل، وعلى وجْهي أصنعُ علاماتِ اللامبالاة والسّخرية، (هيكون إيه يعني؟)

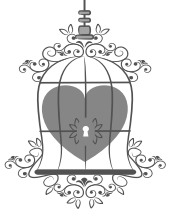

فابتسمَ ابتسامةً حانية، وأردفَ بعدَها (مَلاكي)، نعم أنت ملاكٌ لا يعوّض، لم أرَ في قلبك الطفلِ ولا روحك النقيّة...

قاطعتُ استرساله، واستمرّيت في إظهار أنّ كلّ هذا لا يهمّني، وأنّي لم أهتزّ، وقلت له شكرًا على المجاملة، فأنا لا أحتاجُها، أنا أثقُ في كلام أمّي، هي قالت إنّي سأكون نقمةً وبلاءً على مَن يقرّر الارتباطَ بي، وأنت عندي لك مكانةٌ عالية، وبنظرةٍ حانية أخبرتُه (فوق يابني، صَدَقت ماما لمّا قالت مراية الحبّ عمياء).

وبعدها رحلت.....

رحلتُ وهو مندهشٌ من ردّة فعْلي غير المتوقّعة، وعلا صوتُه بجُملة (إنتِ قاسية على نفسك، وعلى اللّي بيحبّوكِ قوي على فكرة، بسّ أنا مش هيْأس).

رحلتُ وأنا أشعرُ بمنْتهى صدقه، وبمنتهى الآمال أنْ لا ييأس منّي، ويحاول مرّات ومرّات أن يحرّرني من سجن نفسي.

كلّ مَن حولي لاحظوا هذا اليوم صمْتي المليء بالحزن، وعيني المليئة بالفرحة، فلم تكنْ تلك عادتي؛ فكان المكان الذي أكون فيه لا بدّ وأن يعمّ بالضّحك والصّوت العالي لكي أضمنَ ولاء أصدقائي، وعيناي مليئة بالحزن والانكسار لأنّي أعلم أنها لحظات وسأعود إلى سجني.

التفّ الجميع حولي.. ماذا بكِ! ليست هذه عادتك! نظرتُ إليهم جميعًا وصوتي الدّاخلي يتكلم.. (ماذا أقول لكم، أخبركم أنّي أستكثر على نفسي الحبّ الذى كنت أعتبرُه حلمًا، أستكثرُ عليها أن تشعر بكينونتِها).

مَن منْكم يجيب عليّ.. أهو استكثارٌ أم خوفُ الخروج من معتقلِ الاحتقار لها؟

وهممتُ بإخراج صوتي، ولكنْ مَن يفهم؛ فليس منهم مَن مرّ بتلك الويلات النفسيّة ليفهم ما أشعر به.

وظلّ حبيبي يلاحقني بنظراته كعادته، لدرجةٍ جعلتِ الجميعَ مِن أصدقائنا يسألونني عنْ تلك النظرات وأنا أنكرُ ذلك تمامًا.

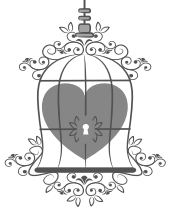

وما فاجأني أنّه عندما وُجّه له السّؤال؛ أجاب بنعم أحبّها، وهي حبّي الأوّل والأخير، وكعادةِ ذلك السنّ هلّل الجميع وفرح بالخبر.

أمّا أنا، فكنتُ تشبّعت بكلمات أمّي، وكان همّي أكبرَ منهم بكثير، بل كنتُ أراهم جميعًا كإخوتي الصّغار، ووقاري يمنعني من الانجراف إلى تلك التّرّهات.

صرختُ فيهم (كفاية ضغط عليّ)، ووجّهت كلامي له بصرامة: (إنتَ واجهتني بكده، وأنا ردّيت عليك، ما تكرّرهاش تاني علشان مازعلش منّك، فهمت؟ لو سمحتْ أنا ماليش في لعب العيال).

نظرَ إليّ نظرةً لن أنساها ما حييت، وقال: (لعب عيال؟!) على العموم، الأيّام بينّا وهثبت لك مين فينا اللّي كان غلط؟

وفي وسط استغرابِ الجميع من ردّة فعْلي غير المتوقّعة في هذه المواقف، انسحبتُ وقرّرت أن أذهب إلى المنزل ولا أكمل يومي الجامعي.

ومرّت الأيام، وهو لا يسأم مِن تكرار المحاولة، لدرجةٍ جعلتني أهربُ منه، وأتجنّب مقابلته لأنّها تزيد من ضربات قلبي، وتجعل مشاعري يفتضحُ أمرُها، وقرّرت حتّى السّلام لا ألقيه عليه، ولا أردّ

عليه، دونَ أسباب من وجهة نظره غير القسوة أو أنّي لا أقبله، ولكنْ لو علم وجهةَ نظري لأشفقَ عليّ؛ لأنّني لم أقصدْ برحيلي غير أنّني لا أريد الاستسلام لكي لا يدفع ثمنَ تشوّهات نفسية جنَتْها يدُ غيره.

واستمرّت القطيعة بيننا لمدّة عام ونصف، كنت أريد أن أصرخَ في كلّ يوم فيها بمنتهى القوّة (أرجوك لا تتركني، أنا متعطّشة لتلك المشاعر، ولكنّني أهرب منك لأجلك، ولأنّني لا أقوى على أيّ وجع آخر، اكتفيتُ من الأوجاع، وبرغم أنّي أُصدّقكَ ولكنّي لا أريد أنْ أخوض التّجربة حتّى ولو لم أصادفْ حبّك في حياتي مرّةً أخرى.

وظلّت حياتي في مُضيّها، ويا ليت كلماتي هنا تصفُ ما تتركُه بمُضيّها من وهنٍ في نفسي، فأنا لم أكنْ أنا التي أريد، بل كنتُ كما يريد أهلي مُنصاعةً فقط لأوامرهم، فهذا الحلّ الذي توصّلت إليه لكي لا يؤلمونني بكلماتهم في هذه السّن.

وأصبح الانصياعُ قناعتي لكي يرضى عنّي الجميع.

كنتُ أظنّ هذا.....

الرّحلةُ الثّالثة

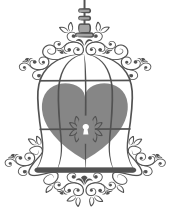

وفي يوم كنت واقفةً عند شرفة القسم الذي أدرسُ فيه، أتأمّل الأشخاص من أعلى، وأتساءل لو كنتُ وافقتَ على حبّه هل كنت سأصبحُ مثل هذيْن الحبيبيْن، كلّ الجامعة تعلم أنّهما (متصاحبين)؟ الحمدُ لله؛ فهذا الأمر لا يروقُ لي، أنا لا أريد إلّا مَن يطرق قلبي من بابِ أبي، فهو- فقط- الرجلُ والصّادق، كما قالت أمّي.

وإذا بصوتٍ خلفي يقطع حبلَ أفكاري:

) عاملة إيه؟ وحشني صوتك، إزّاي هُنت عليك كده؟ حتّى السلام مش بتردّي عليه!)، واستمرّ فى الكلام، وتوقّف سمعي إلّا عن صوتِ دقّات قلبي وكأنّي فى حالة احتضار، لا شهيق ولا زفير أقوى عليه، كعادتي موقفٌ لم أتوقّع حدوثَه مع أنّي عشتُ عامًا أتمنّى أن أسمع صوته.

التفتّ إليه وأنا أنتفضُ من الفرحة والخوفِ من المواجهة، ووجّهت له سؤالًا بمُنتهى الصّرامة: (إنت عايز إيه منّي بالضّبط؟)

قال لي بنظرةٍ مليئة بالترجّي: عايز أرتبط بيكِ، أنا بحبّك.

أنا: أيّ ارتباط!! (أنا مش بتاعة مصاحبة).

هو الأميرة اللّي زيّك، والملاك الطّاهر ينفع يتصاحب!؟ أنا عايز أقابل عمّو وأخطبك.

بمُنتهى العجرفة رددتُ عليه: إنت مش شايف إنّ احْنا لسّه صغيرين، منين هتخطبني وانتَ لسّه طالب؟

ردّ عليّ بمزيدٍ من نظرات التوسّل: أنا قلت لماما وبابا وهمّا موافقين، وهنجوّز في آخر سنة في الجامعة، أنا بحبّك، وأظنّ الأيام أثبتتْ لك إنّي مش بلعب، أنا أبويا ربّاني على المسئولية، وأنا أنجزتْ في حياتي اللّي ماأنجزوش شابّ عنده ٢٥ سنة، بسّ قولي آه وانتِ عمرك ما هتندمي، علشان خاطري، أرجوكِ ما تكسريش قلبي المرّة دى.

وقتَها، انفجرتُ في بكاءٍ شديد.. لم أبْكِه من سنوات، لم أبْكِه حتى عندما كان يضربني والدي فى الحائط وأنا في المرحلة الثانوية.

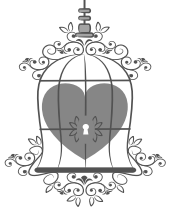

قال لي وعيناه تملؤها الدّموع، ويكاد يضمّني لوْلا دماثة أخلاقه: ما لك؟ فيكِ إيه؟ إنتِ شكلك بتموتي فى النّكد يابتّ إنت.

قلت له: ليه؟ إشمعنا أنا؟ أنا ضعيفة، أنا شكلي وحش، أنا قلبي عُمره خمسين سنة، أرجوك أنا فعلًا بحبّك، وفعلًا ما رضاش ليك بواحدة زيّي، مش هتستحملني، هتسيبني، وأنا مش حمل أيّ وجع، هموت لو سبتني. وظللت أهذي وأهذي، ولا أتوقف عن البكاء.

وهو يردّ على كلّ جُملة أهذي بها بضدّها، وتأكيد كلامه أنّه لن يتخلى عنّي.

وظللْنا ساعةً أنا أفترض أسوأ السّيناريوهات وهو ينكرُها تمامًا، إلى أن استطاع بسحْره وطيبة قلبه أن يجعل روحي تهدأ بعد أعوام من الإعصار بداخلها.

وابتسمتُ بعدها، وكأنّي لم أبتسمْ منذ قرون، وتشرّب قلبي بتلك البسْمة الصادقة منه، وبجُملته (ابتسمي، خلّيني أحسّ إنّي روحي رجعتْ لي من تاني).

شعورٌ غريب يجتاح نفسي، لم أعتدْ عليه، اشتقتُ إليه كثيرًا، ولكنّي أخشى فقدانه.

كمْ جميلًا أنْ تشعري أنّك طفلة مدلّلة بعدَ سنين من العذاب المُقنّن، والاعتقال المبرّر باسم الخوف والتربية والحبّ.

كم جميلًا أن يجعلك شخصٌ تغيّري معنى الحبّ والسعادة، ويجعلك تؤمني أنّه مازال موجودًا بعد كفرك التّام به، سبحان مَن يهدي القلوبَ فى أقلّ من الثانية من حيث لا ندري ولا نحتسب.

ومن يومِها وكأنّني أرى الدنيا بعد سنين من العمى ألوانًا زاهية، ضحكات من القلب، أعدّ السّاعات لكي أقابله وأتنفس كلماته وابتسامته وضحكاته، وأتمنّى أن تتوقّف كلّ عقارب السّاعة وأنا في حضرته، وتبدّلت حالتي، وأصبح كلّ مَن حولي يسألون ما هذا الجَمال المفاجئ الذي كُسيَت به؟! وجهٌ تبدّل لونُه من الشحوب إلى لون الحبّ، حتّى ضحكاتي التى كنت لا أقطعها برغم حزني الدّائم، إلّا أنّ الجميع أجزموا أنّها الآن مختلفة.

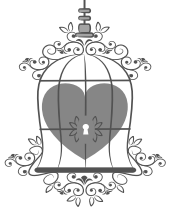

وبدأتْ أمّي وأبي يلاحظان التّغيير، ويوجّهان الأسئلة، وأنا أنكرُ تمامًا، أو أكذب أحيانًا أنّي حصلت على درجاتٍ عالية، إلى أن يأتي الوقت المناسب ليفاتح حبيبي أبي.

ومرّت الأيام، ولكنّها بلوْن مختلف، بدأ يعلّمني أنْ أحبو ناحية الثقة بنفسي وبقدراتي، بدأ يضيء بداخلي مميزاتي ويؤكّد عليها بالمواقف والبراهين طوالَ الوقت، ويشجّعني لكي أتقدّم فى كلّ شيء.

علّمني أن أطلبَ منه أيّ شيء، بعدما كنت لا أقوى أنْ أعبّر عن أيّ مطلب، حتّى ولو كانت شكوى من مرض.

علّمني أن أدافعَ عن حقّي وقتما أظلم، وأخذَ بيدي ليعلّمني السيرَ فوق أشواك الزمان.

علّمني طريقةً جديدة للحبّ لم أرها من قبل في رواياتي التي كنتُ أرمي حزني فيها.

علّمني معنًى جديدًا للمفاجأة التي تقتلع القلبَ من مكانه، وترتفع به إلى جنّات مليئة بجداول الحبّ والإخلاص والتفاني في إسعاد مَن حوله.

كنتُ أرفض أن يتحدّث معي فى أيّ شيء سلبي، كنت لا أريد إلّا أن نبتسمَ ونحلّق فوق سماء حبّنا لأتشبّع بالفرح بعدما سكنني الحزنُ، وأدمنته طوال حياتي.

كنتُ أخبره دائمًا أنّني أشعرُ أنّه ليس لي برغم أنّي أعشقه، وهو يخبرني أنّي أدمنت الحزن، وهذه أعراضُ انسحابه من جسدي .

كنتُ أصدّقه وأكذّب مشاعري التي لم تكذبْ عليّ طوال حياتي، لأنّي لا أريد غير أن أصدّقه، وغير ذلك سأسقط مرّة أخرى في هاويةِ الضّعف، ولكن قوّة ارتطامي هذه المرّة ستكون مدوّية كاسرة لكلّ المعاني بداخلي.

وفي صباح يوم أتذكّره كما لو كان اليوم، جاء حبيبي وفاجأني أنّه يريد رقمَ والدي ليحدّد معه موعدًا بعدما تمرّ فترة الامتحانات، لتكون خطبتنا فى إجازة الصيف.

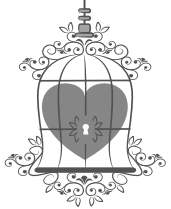

وظللنا نحلمُ ونحلمُ بأيدينا يزيّنهما خاتما الخطوبة، وظللتُ أقفز كالطفلة وأقول له.. لا أصدّق أنّي سيكون في يدي خاتمٌ عليه اسمه الذى طالما عشقته.

وأعطيتُه رقمَ والدي، وأخبرته أنّي لن أخبره بشيء، وكأنّه تصرّف وأتى بالرّقم بطريقته؛ لأنّي لا أستطيع أن أواجه أبي أبدًا أبدًا، ولا أريد أن يعكّر صفو روحي صوتُه الذي أكرهه.

لامَ عليّ تلك الجُملة، وقال لى إنّه لا يحبّ أن يسمع منّي ذلك مرّة أخرى، بل بالعكس طلبَ منّي أن أستمدّ من طاقة حبّنا طاقة أسامحُ بها كلّ مَن دمّروني لكي يظلّ قلبي نقيًّا لا يزاحم مشاعر حبّي له أيّ مشاعر سلبية.

ارأيتِ كيف يوجّهني؟ لغة راقية لم أعتَدْ أن أسمعها في أيّ أمر، ولا أستطيع إلّا أن أقول لها سمعًا وطاعة.

وعدتُه بذلك، وفعلًا عقدتُ العزم ونيّتي صادقة.

وفي المساء، رنّ هاتف والدي المحمول، وسقط قلبي فى قدمي.

أبي: ألو، مين حضرتك؟

أحمد: السّلام عليكم يا عمّي، أنا أحمد زميل بنتِك فى الجامعة، وكنت عاوز أقابل حضرتك.

ردّ والدي بمنتهى السّخرية: وانتَ بقى جبتْ رقم حضرتي من بنتي زميلتك في الجامعة؟!

ردّ عليه أحمد: لا يا عمّي طبعًا، هي ما بتكلّمش حدّ خالص، أنا جبتُه من شئون الطلبة.

ردّ والدي: شئون الطلبة مرّة واحدة، ليه في إيه للدرجة د!؟

ردّ: لا مفيش، خير يا عمو، أنا عايز آجي أنا وبابا لحضرتك علشان عايزينك في موضوع.

والدي: اتفضّل يا بنى، تقدروا تيجوا الخميس ده إن شاء الله.

وأغلق أبي الهاتف ونظرَ لي نظرةً مليئة بالشّك والتّهديد، وأنا قلبي يرتعد، ولكنّ حبيبي علّمني بعض أساسيات التحكّم في انفعالاتي.

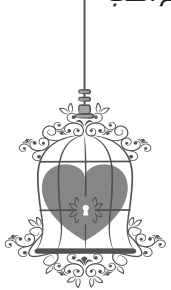

أنا: خير يا بابا في إيه؟

والدي: مش عارفة في إيه، إنت هتمثّلي؟

أنا: في إيه بجدّ، والله ما عارفة حاجة؟

صاح على أمّي بصوته الذى يزلزل كياني: تعالي دلوقتِ اعرفي بنتك إيه اللّي كان قالب كيانها الفترة اللّي فاتت، بنتك بتحبّ يا هانم وانتِ نايمة على ودْنك، وبعد ما خدت راحتها قال إيه جاي يتقدّم الباشا!!

واستطردَ قائلًا: تعرفي لولا سنّك كنت قمت ادّيتك علقة موّتك فيها، امشي غوري على أوضتك، وما تحلميش إنّي أوافق على تلميذ، أنا اللّي أختار لك المناسب.

استجمعتُ قواي لكي تحملني قدماي لغرفتي، وارتميتُ على فراشي أبكي.. وأبكي بصوتٍ لا يُسمع، وأنا أريد أن أصرخ وأُسمع العالمَ سياطَ الظّلم التى تُجلد بها نفسي.

ولم أنمْ حتّى الصباح لأراه وأرى في عينيه الصّمود ليشحن طاقتي التي استنفذت من تلك الجُملة، وأخبرتُه بها، وأخبرته بخوفي، وأخبرته بقلّة حيلتي، وأنني لم أقوَ أبدًا على الدفاع عن أيّة حقوق لي طوال حياتي.

فابتسمَ لي، وكاد يحضن يدي بيديه لوْلا أنّني نهرتُه: ما تقلقيش يا ملاكي، أنا عمري ما هسيبك لو هيموّتونى حتى.

أخذتُ بعدها نفسًا عميقًا، وابتسمتْ وأسمعني جُملته التى تطرب قلبي: (أيوه كده ابتسمي خلّيني أحسّ إنّي روحي رجعت لي من تاني).

الرّحلةُ الرّابعة

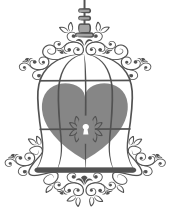

وجاءت الامتحانات، كان هناك شيء داخلي يخبرني أنّ هذا آخر عهدي بالفرحة الصّادقة، النابعة من أعماق قلبي، كلّ الآتي سيكون تصنّع يوجبه الواقع.

وبعد الامتحان الأخير، أخبرت أحمد بما أخشاه، ولكنّي هذه المرّة لم أرَ في عينيه الحماسةَ والأمل كسابقِ عهده معي برغم أنه يخبرني بكلام مليء بالآمال.

ثمّ ابتسم ابتسامةَ الخائف المترقّب، وقال لي: إنْ شاء الله، أنا جاي مع بابا يوم الخميس، عايز آجي ألاقي البسمة دي، وما تخافيش من حاجة، طول ما انا بحبّك اطّمّني مهْما قابلنا.

ومرّت الأيام ثقيلة كالجبال، وكأنّها لاتريد أن تأتي، وجاء اليوم المرتَقَب، كنتُ يومها أريد أن أفرح كأيّ بنتٍ نالت مرادها، ولكن قلبي رفضَ أن يرقصَ مع نغمات الموقف، واكتسى بالحزن.

جلسَ والده ينظرُ إليّ بإعجاب شديد، وظلّ يُثني على أخلاقي وشخصيّتي، وأنّه وجد كلامَ ولده أقلّ بكثير من الحقيقة، ووالدته تتغزّل في جَمال عينيّ، والأمر بالنسبة إليّ غريب؛ فأنا أوّل مرّة أسمع كلامًا يطربني بهذا الكمّ مِن أحدٍ غير حبيبي.

وقتَها فقط، بدأت بداخلي صراعات ما بين غضبي من أمّي وإشفاقي على نفسي أنّها لم تصدّق ما تراه فيها، ما بين تأكيد مشاعري لكرْهي لوالدي، ورفضي لإظهار ذلك من أجل ربّي.

وبدأ والدُ أحمد في الحديث الرّسمي: إحْنا يشرّفنا يا حاج نطلب إيد بنتك لابننا أحمد.

والدي: معلش أنا عايز أسأل سؤال، إنت مش مكسوف من نفسَك وانتَ راجل طويل عريض، وجايّ تخطب لابنك اللّي لسّه ما بلغش سنّ الرشد؟.. طبْ هيصرف عليها منين!!؟ لو فرضنا إنّك هتتكفّل بكلّ جوازته؟ ولو جابوا..............................

والد أحمد: أظنّ يا حاج عيب قوي لما تغلط في حدّ وهو في بيتك، والله إحْنا ما كذبناش عليك قبل ما نيجي، وأظنّ إنّ ابني قال لك إنّه زميل بنتك في الجامعة، مش فاهم بقى الغرض مِن إنّك تجيبنا هنا وتغلط فينا؟

والدي: بصّ يا حاج يا محترم، أنا ماعنديش بنات للجواز، أنا كنت بسّ عايز أعلّمك درس ما تنساهوش قبل ما تفكّر تدخل بيوت النّاس، وتجيب لهم عيال يطلبوا إيد بناتهم.

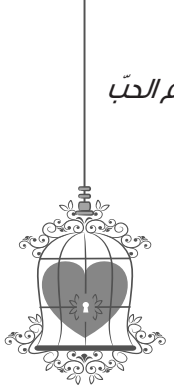

والد أحمد: شكرًا جدًّا لحضرتك، إتعلّمنا الدرس، يلّا بينا يا أحمد.

والدي: مع ألف سلامة.

أحمد بنظراتِ توسّل لوالده: أرجوك يا بابا نتفاهم بسّ، عمّو عنده حقّ لأنّه ما يعرفنيش، ده اللّي الناس بتفكر فيه.....

والد أحمد بنظرةٍ صارمة: أحمد، اتفضّل قدامي.

وأنا كعادتي لا أملكُ غير دموعي المنْهمرة، دونَ أيّ صوت، ولم تعدْ قدماي تحملني لأقوم أوصلهم إلى الباب.

وأحمد ينظر إليّ نظرةَ توسّل أن أنطق، ممزوجة بنظرات الشّفقة فهو يعلم جيدًا كم عانيت من هذا الرجل في حياتي.

ورحلوا وتركوا بداخلي خواءً ويأسًا أشدّ ممّا كان قبل أن أعرف أحمد.

وأمّي تنظر نظرةَ المنكسر، ولا تنطق حتّى بكلمات مواساة.

كم أكرهك أمّي، أنتِ المسئولة عن كلّ ما نحنُ فيه، ندفع ثمن انكسارك وذلّك وخوفك من أعمارنا وأحلامنا، كم أكرهك حتى أكثر من ذلك الظالم.

وأنا كالمغشي عليها استيقظتُ على صفعةٍ على وجهي ممّن يسمّى والدي، وبعدها وابلٍ من السّباب والوعيد لو تكرّر مثل هذا الموقف.

حينها، وبرغم شدّة الصّفعة، تجمّدت الدموع المنهمرة في عيني، وبرغم صراخِه أنْ أغرب عن وجهه إلّا أنّي لم أستطع أن أقف على قدماي لأنفّذ رغبته، لا أقوى على القيامِ لأرتمي في أحضان وسادتي لأصرخَ بصوتٍ مكْتوم كي لا يسمعني أحد، ويعنّفني.

وكانتْ هذه أوّل مرّة لا أنفّذ الأوامر فيها، وبرغم أنّ الأمر كان خارجًا عن إرادتي، إلّا أنّي شعرت بلذّة الانتصار لأنّه هو مَن غرب عن وجهى لأنّي لم أستجب لأوامره.

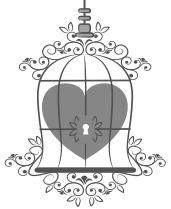

وبعد وقتٍ لم أعرف كم مدّته استجمعتُ قواي ودخلتُ غرفتي، وظللت مستيقظةً حتى صباح اليوم التالي، لا أفكّر ولا أتكلّم وكأنّي تجمّدت مكاني، وأمّي بين حينٍ وحين تدخلُ وفي عينها الدّموع والعجز، ولا تعرف ماذا تقول.

وإذا بأحمد يتّصل بي على تليفوني الخاصّ، وبرغم خوفي الشّديد لأنّها المرّة الأولى؛ إلّا أنّ قلبي كاد يترُك مكانَه من الفرحة.

أغلقت بابَ غرفتي ورفعتُ الهاتف، وإذا بصوته حزينٌ مهزوم: أرجوك ردّي عليّ، أنا هموت من امْبارح، أنا آسف إنّي اتّصلت بيكِ، بسّ أنا عارف فيك إيه من امبارح، أنا مش هسيبك لو عملوا إيه، لسّه قدّامنا محاولات كتير.

وكان وقْع كلماته عليّ كالماءِ البارد في يوم شديدِ الحرارة، قلت له: (أنا مطمّنة لأنّك جنبي، ومش عايزه أكتر من كده، وحتى لو سجنّي، هعيشً سعيدة بسّ لأنّ اللّي في خيالي صورتك).

تحوّل صوتُه لمنتهى الأمل، ووعَدَني للمرّة الخامسة أنه لن يتركنى .

أردفت قائلة: أحمد.

أحمد: نعم يا ملاكي.

أنا: شكرًا على الآمال اللّي بتخلقها وبتغذّيني برغم واقعي البائس، شكرًا على المعاني الجديدة اللّي خلّتها سكنتني وطمّنتني، شكرًا على دنيا الحبّ اللّي بتحوّل حياتنا من ليل قاتم لفَجْر منوّر كلّ الدّنيا.

أحمد: أنا اللّي شكرًا على إنّك في حياتي يا ملاكي، (أيوه كده، ابتسمي خلّيني أحسّ إنّي روحي رجعت لي من تاني).

أنا: وبقيت تشوفني من ورا السماعة كمان.

أحمد: ما أنا ادّرْوشت زيّك، وبقيت أشوف مهْما بعدِتِ المسافات، بحبّك يا نكديّة.

أغلقتُ الهاتف، ووضعْتُه تحتَ وسادتي لأنّي أعلم أنه سيكون أنيسي في سجْني إلى أن أتحرّر في بداية العام الجديد.

الرِّحلةُ الخامِسة

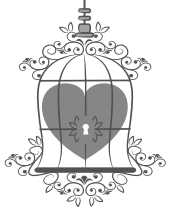

ومرّت الأيامُ ثقيلة، وكأنّ اليوم خمسون ساعة، ولا يؤنس وحْدتي فيها غير كلماتِه القليلة عبر الهاتف، والذّكريات التي كانت بيني وبينه.

أيّام تبنّيت الصّمت فيها، كنتُ فعلًا لا أتكلّم بالأيام إلّا عندما يهاتفني.

وبرغم صورتي الظّاهرة التي تبدو بائسة لكلّ مَن حوْلي، إلّا أنّ بداخلي بساتين يسقيها الحبّ، وبرغم صورتي البائسة التي يتحدّثون عنها إلّا أنّهم لم يلقوا لها بالًا، ولم تأخذهم بها رحمة، فكان كلّ مَن في المنزل يخرجون كلّ يوم، وأسمع في كلّ مرّة صوتَ أبي على الباب (سيبيها كده زيّ الكلبة في البيت خلّيها تتربّى).

مسكين، هو لا يعلمُ أنّه بذلك يزيد مِن كرهي له، ويقتل بداخلي أيّ تعاطف تجاهَه، ويلغي من قاموسي أيّ معنى لنقطة الضّعف، ويا ويلَ العالم من نفسٍ عرفت معنى القسْوة من أناسٍ مُفترض أن يكونوا سندها، ويا ويلَ العالم من إنسانٍ لا يملك أيّ نقاط ضعفٍ تجاه عائلته.

كنتُ في رحلةِ الصّمت هذه يزيد بداخلي تمسّكي بأحمد، إلى أنْ وصلت لصلابة داخليّة في آخر العطلة السّنوية لم أكن أتوقّعها، وأصبح مبدئي خسارة كلّ العالم ومكسب أحمد، وجدتُ بداخلي سؤالًا يتكرّر ما الذى سأخسره؟! فأبي وأمّي والمنزل برمّته أتمنّى الخروج منه بأيّ وسيلة، فهو معتقل للتعذيب، ماذا بعد ذلك؟

وقرّرت أنّه لا بدّ أن أحارب الدّنيا من أجله مهْما بلغتْ جيوش أبي من عَتاد، لن أتركه يحاربُ من أجلي منفردًا، سأكون أنا جيشه وعتاده وبسمته وسكنه.

وفجأة استشعرتُ بقوّة تسري في جميع جسدي، ممزوجة بإصرارٍ قويّ يستطيع أن يدكّ العالم إن أراد شيئًا، ويصاحبها صوت الخوف، ويخبرها أنّي لن أقوى على الصمود، وأصبحت كلّ يوم في صراعٍ داخلي ما بين صورةٍ بعيدة مُتَخيلة لنفسي وهي قوية تستطيع أن تصرخَ في وجه كلّ ما ترفضه، وصورةً قريبة أحاول أن أبعدَها، صورة مهزومة لا تقوى على أن تنظرَ في عين من يمنعها الحياة.

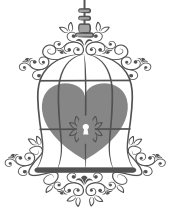

صراعٌ لا يقدر على وصفه ولا تخيّله إلّا مَن مرّ بهذه التفاصيل المؤلمة.

وجاء اليومُ المنتظر، اليوم الذي يسبقُ بداية العام الدراسي الجديد، بليلِه الطويل الذي لا ينقضي، حاولت أن أطويَه في البحث في فساتيني وأدواتِ تجميلي لكي أليق بمقابلة سلطان قلبي، وغلبني النعاس وأنا أفكّر في الغد، فهو يمثّل لي بدايةَ اختبار حقيقي. هل عندما أراه سأقوى على الصّمود والمحاربة معه، أم أنّي ما زلت بصورتي القديمة الهشّة؟

وهل سأجدُ في عينه ذلك الإصرارَ القديم عليّ، أم استسلَمَ لضغوط والديه؟

وجاء الصّباح واستيقظتُ على صوتِ والدي وهو يهدّدني ويتوعّد بالويْلات التي سيصبّها عليّ صبًّا لو نظرت في وجه أحمد، وأقسمُ أنّه لو شعر بهذا لن يتردّد في أن يفضحنا أمام الجميع.

صراخٌ وسبابٌ وأنا أغيب بالتّدريج في تخيّل وجه حبيبي الملائكي الذي لم أعدْ أعشقُ غيره، حتى صرتُ لا أسمع ما يقول، فقط أشير برأسي سمعًا وطاعة لكي ينهي هذه المحاضرة السخيفة.

وذهبتُ إلى الجامعة، وجدتُه جالسًا بجانب الأمن ينتظرُني، كاد قلبي يخرجُ من صدري، ما هذا؟ أيعقل أن يعوّضني ربي بهذا الحبّ الكبير؟ كيف يصبح حظّي بهذا الجَمال، وأنا لم أرَ في حياتي غير حظّ بائس وأشخاص بائسين؟

مئات الأسئلة تدورُ في رأسي وأنا أتقدّم ناحيته ولا تحملني قدماي، ولم أستفقْ منها إلّا عندما شعرت بيدي في حضن يديه وهو يعتذر: (آسف، أنا عارف إنّك مش بتسلّمي، بسّ بجدّ كنت وحشاني قوي، ولوْلا الملامة كنت خدتك في حضني).

احمرّت وجنتاي، وكدت أسقط من الخجل، وقلت له: (أرجوك ما تكرّرهاش تاني).

لاحقني: (إنتِ عملتِ فيّ إيه!؟ حقيقي أوّل أجازة تعدّي عليّ ما حسّش بطعم أيّ حاجة فيها، أنا بحبّك قوي).

ابتسمتُ له من كلّ قلبي لكي أسمع منه تلك الكلمات، التي اعتدتُ عليها، بتلك النّظرات التي اشتقتُ لها اشتياقًا، ولا يمنعني عن وصفِ شوقي له غير خجلي الجمّ، ولكنّه لم يخذلني واستطردَ بتنهيدةٍ قويّة (أيوه كده ابتسمي خلّينى أحسّ إنّى روحي رجعت لي من تاني).

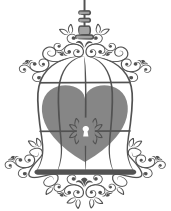

دخلنا الجامعة، وظللْنا نحكي.. ونحكي عن ما جرى، وما سيكون، وذبنا في حديثنا، ولم نشعرْ إلّا والسّاعة الرابعة عصرًا، حان وقتُ الانصراف إلى البيت لأنّ أبي معه جدول المحاضرات، ويا ويلي لو تأخّرت.

استجمعتُ قواي وأخبرته بمُنتهى التّلعثم من الخجل بأنّي الآن سأكون شريكةً قويّة في معركته، لن أتخلّى عنه، وسلاحي هو ذلك الحبّ الدافئ الذي لم أتذوقه طوال حياتي.

لا شيء يوصف فرحته بتلك العزيمة، كاد يقفزُ من مكانه، وظلّ يصرخ (دلوقتِ اتأكّدت إنّك بتحبّيني، دلوقتِ آمنت بقوّة حبّي ليك، كنت مراهنهم على كده، أنا صحّ، أنا صحّ)

وهاتف والده كالمجنون: (بابا كسبت الرّهان قوّة حبّي ليها هي اللّي كسبت، وعدتني يا بابا، خدْ كلّمها).

وأنا في ذهول، والسّماعة على أذني، ولا أقوى على نُطق كلمة من الخَجل والخوف من أن يُسمعني والده ما يثأر به لكرامتهم، وإذا بصوتٍ رخيم يشعّ بالحنان: (أماني حبيبتي، أنا أحمد أغلى حاجة عندي،

واللّي عايزُه أوامر عندي؛ لأنّي فعلًا بثق في اختيارته، أرجوكِ إوعي تخذليه، خلّيكِ قدّ الوعد يا حبيبتي وأنا في ضهْركم مادام ما بتغضبوش ربّنا، ومفيش سبب حقيقي لرفض والدك).

وأنا أسمع هذه الكلمات، ولا أملك أيّ ردّ إلّا دموع منْهَمرة، لا أدري أهي دموعُ الفرحة ببداية انتصاراتنا، أم دموع من المقارنة بين أب عدوّ، وأب صديق، وأحمد يجلس بالقرب منّي، والخوفُ الممزوج بالشّفقة يملأ عينيه، ويسألني بصوتٍ منخفض (في إيه؟ بيقولّك إيه؟).

وفي نهايةِ المكالمة، سألني والده: (توْعديني يا بنتى؟)

أخذتُ نفسًا عميقًا مليئًا بالتّحدي والإصرار والاستعداد، وكأنّي سأغوص تحت الماء، استعدادًا لمعركة لا أدري لماذا كانت من البداية مادام الباب قد طُرق، وقلت: (أوعدك يا عمّو).

وفوجئت به يقول: (مادام أحمد اختارك تبقي بقيتِ بنتي، مِن النّهارده تقوليلي يا بابا) وكأنّه يعلم جيدًا افتقادي لتلك المشاعر، ومن يومِها وأنا أناديه أبي؛ بالكلمة والفعل والمشاعر.

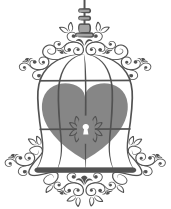

أغلقتُ الهاتف، ونظرتُ إلى أحمد نظرةً ضممْتُه بها إلى قلبي، وشكرتُه على مشاعرِ السّكن والعشق والمعاني الجديدة التي أكتسبها كلّ يوم، من يومِ ما تقابلت أعيننا، وابتسمنا ابتسامة المُنتصر بعد معركةٍ عصيبة، ومضينا كلٌّ إلى منزله.

ووصلتُ المنزل، وحاولتُ أن أخفي بريقَ عيني، حتى لا يفتضح أمري، ودخلت بنفس مظاهر اليأس والحزن التى اعتادوا عليّ بها، فأنا- ومن المؤسف- أخفي فرحتي عن أكثرِ النّاس الَذين من المفترض أن يكونوا فرْحتي حتّى لا يسرقوها منّي، وأحاول أن أخمدَ نظرات أحمد فيَ ذاكرتي، وأُسكت صوتَ كلماته التي تتردّد على مسامعي كالنّغمات لكي أركّز في الاستجواب المنتظر من والدي الموقّر.

وانتهتْ جلسة التحقيق بنجاح، وهرولت إلى غرفتي لأستعيدَ تلك النّظرات والكلمات لأتغذّى عليها لليوم التّالي حتى ألقاه.

ومرّت الأيام، ويزداد حبّي لأحمد، وتزداد أيامي جمالًا وإشراقًا، وأصبح ألمُ الأمس- برغم استمراره- آمالًا وأمنيات تملأ دنيتي، كلّ يوم أهانُ فيه من أهلي لم يعدْ يقلّل منّي شيئًا، بل يقابله صوتٌ مليء بالأمل أنّ غدًا أفضل لا محالة بحبّنا الذي أصبح الجميع يتحدّث عنه.

أصبحتُ الآن أقوى، أصبحتُ الآن أستطيع أنْ أخرج وأقابلَه وأتكلّم معه دون أن يفتضحَ أمري، أصبحت الآن أقرب لعائلته وأصبحوا عائلتي الحقيقية، أصبحت الآن أكذبُ على أهلي بمنْتهى الصّدق والإتقان، ودونَ أن ألوم نفسي.

ومرّت السنوات، ونزداد قربًا، وأصبحنا مثالَ الحبّ في الجامعة من تلك المفاجآت التي عبّر بها حبيبي عن حبّه لي، ومن تلك المواقف التي برهنَ بها أمام الجميع أن قلبي أصبح مسئوليته التي لن يتخلّى عنها، لم نعدْ نخجل من أن نصرّح بحبّنا، أصبحنا ملاذًا لمَن يعانون من الجفاء والقسوة، أصبحنا نبعًا لمَن يريد أن يستزيد من نهْر الحبّ الطاهر الصادق.

وجاء التّيرم الأخير الذي طالما حلمنا به لنعودَ بعده لساحةِ المعركة مع والدي، فبعده لن يصبح أحمد طالبًا، ووالده يعلم أين سيوظّفه ليصبح كفئًا لمَن سيرتبط بها منذُ نعومة أظافر ولدِه، كم يكون الشّخص محظوظًا عندما يملك أبًا وهبَ نفسَه لتذليل الصّعاب لأبنائه.

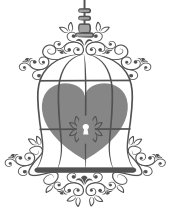

وجاء وقتُ اختيار المجموعات لمشروع التخرّج، وكان كلّ مَن في مجموعتي أصدقائي وصديقاتي، ومنهم صديقتي التي كانت أقربَ إليّ من أختي طوالَ سنوات المدْرسة والجامعة، ولكنْ لاحظتُ بشعور الأنثى في السّنة الأخيرة بأنها تحاول الفوز بقلب أحمد وأنّها فجأة أصبحتْ تعتبرها معركتها دونَ أن تتكلّم كلمة، ولا يوجد إثبات على شكّي غير يقيني بتلك المشاعر التي انتابتني تجاهها.

وأحمد لا يرى ولا يسمع غيري، ولا يلقي لها بالًا، ولكن ضعف ثقتي بنفسي بدأ ليظهر على السطح من جديد، فأنا لم أمرّ باختبار حقيقيّ طوالَ سنواتنا معًا، بدأت أركّز مع كلّ حركة وكلّ كلمة تصدرُ منها، وأسترجع ذكرياتنا معًا، وأسترجع بعض التصرفات التي كانت تصدر منها، والتي كانت توضّح غيرتها منّي، وأنا بمنتهى الغباء كنت لا أفهمها.

تذكّرت يومًا وعدني فيه أحمد أنْ نذهب إلى المطْعم الذي أحبّه، وكيف يومها حاولتُ بكلّ الطرق أن تمنعنا أن نكون معًا بحجّة أنها مريضة ومُكتئبة، تذكّرت كلّ تلك المواقف التي كانت تحملُ مضمون الحقد لي وأنا السّاذجة كالعادة لم أنتبه إلّا مؤخّرًا.

أصبحتُ لا أطيق مكانًا هي فيه، وأصبحتُ أرى نظرات التحدّي في عينها وهي تتحدّث معه، وأصبحت أرى أنّها تتعمّد أن تقتربَ منه وهي تحدّثه، وهو فعلًا لا يشعر بكلّ هذا.

أصبحتُ سريعةَ الغضب على نفسي لأنّي أنا مَن سمحت بهذا القرب من البداية، ولم أرحمْ نفسي من الجلد بسياط تلك الجُملة (أنا أستاهل، أنا السبب) كلّما شعرت بالنّار تسري في قلبي.

وسريعة الغضب على أحمد، أصرخُ في وجهه طوالَ اليوم دونَ داعٍ، وهو يا حبيبي يعذرني في كلّ مرّة، ويُخبرني أنه مقدّر الضّغط الذي أشعرُ به بسبب المشروع، وبسببً اقتراب المواجهة مع أبي.

ولكنّي استجمعتُ قواي، وقرّرت أن أصارح أحمد بشعوري، حتّى لو كنت ما سأقوله سيطعنُ في أخلاق صديقتي التي استأمنتها، ولكنّه استنكرَ بشدّة ما أقول، وقال لي: (دي بسّ من غيرتك عليّ، وخوفك من إنّي أضيع منّك، فبيتهيّئ لك كده، وبعدين حتّى لو... المهم أنا اخترت مين؟ اطمّني يا روحي أنا مش لحدّ غيرك مهْما حاول غيرك).

الرّحلةُ السّادسة

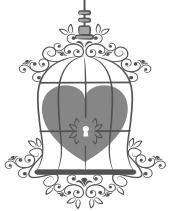

قرّرت من كلماتِه أن أصدّقه وأكذب شعوري تجاه من تسمّى صديقة، بل أصبحت أدرّب عقلي أنْ أحتقرها لكي تهدأ نارَ قلبي وآلامه، وبدأتُ أحكي ما أشعرُ به لصديقاتنا المقرّبات، والجميع يؤكّد أنّه لا وجه للمقارنة، فأنا الأجمل، والأذكى، وأنا مَن يعشقني أحمد، والجميع يؤكّد أنْ لا حلّ إلّا التركيز على معركة أبي، وإسعاد أحمد.

وانتهى المشروع، وانتهتْ معه السنة، وبدأنا في انتظار النتيجة لكي نبدأ الحياة من وجْهة نظرنا، وكانت النتيجة رائعة أكثرَ ممّا نتوقّع، وفرح أهل أحمد كثيرًا، وهاتفوني يشْكرونني على رعايته وتشجيعه، وأخبروني أنّهم يحلمون باليوم الذي سأكون فيه معهم ولنْ يتنازلوا عن ذلك.

أمّا أنا، فذهبت لأخبر والديّ، واكْتفوا (بمبروك يا حبيبتي)، ثمّ أكملوا الحديث، وكأنّه أمرٌ طبيعي، وبدأت أمهّد لأمّي أني مازلت على علاقةٍ بأحمد، بل إنّي على استعدادٍ لخسارة نفسي من أجله.

انتابتْها صدمةٌ رهيبة، كيف استطعت أنْ أخفي كلّ هذا كلّ تلك السنوات، وبدأت في تخويفي من الواقع ومن الأزمات، وإنّه لو كان آخرَ شخص فلن يقبل أبي به.

تركتها وهاتفت أحمد، وأخبرته ما دار بيننا، فقال: (حاجة طبيعيّة حبيبتي ومتوقّعة، ما تقلقيش أنا معاك لحدّ آخر عمري ومش هسيبك إلّا لو انتِ قرّرتِ تسيبيني).

ومرّت الأيام بحلوها ومرّها، ولا تفعل شيئًا غير أنّها تزيد عشقنا أكثر وأكثر، وأمّي في كلّ يوم تحذّرني من مغبّة تواصلي معه وتؤكّد عليّ أنه عندما يعلم أبي لا أخبره أنّها كانت تعلم أيّ شيء، مسْكينة لا تقوى على ما سيفعله أبي.

واستلمتُ أنا وأحمد وظائفنا ذات المستقبل الباهر، ورقصتْ قلوبنا للفرص العظيمة، ولكنّ قلبي يقاوم شعورًا باليأس مصرًّا أن يسكنه.

وفي نفس اليوم، قرّر والد أحمد أن يعاود المحاولة، فاتّصل بوالدي وأخبره أنه يطلبني للمرّة الثانية.

خرجتُ من غرفتي على صراخ أبي: (إحْنا مش قلنا لو آخر واحد في العالم مش هجّوّزه ليها).

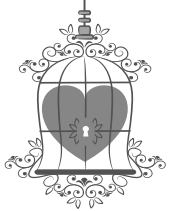

(يا سيدي أنا حرّ، بنتي وأنا حرّ فيها)، وأغلق الهاتف في وجْه الرّجل.

وقتَها كان الاختبار الأكبر هل أستسلمُ لنداء عقلي الباطن، وأهرب إلى غرفتي، أم أظلّ أمامه مهْما كلّفني الأمر؟

واستفقتُ من حيرتي على صفعةٍ على وجهي، تَلَتْها ركلاتٌ وركَلات، وسباب، وتساؤلات كيف لم يكتشفْ أنّي استمرّيت في علاقتي به كلّ هذه السنوات؟

لم أبكِ كعادتي، ولكن الاختلاف أنّ هذه المرّة لم يبكِ قلبي؛ بل بالعكس كان يمتلأ بالتحدّي أكثر وأكثر.

دخلتُ غرفتي، وأخبرتُ أحمد بما حدث، واتّفقنا أن يأتي غدًا مباغتًا له .

ونفّذنا ما اتّفقنا عليه، بعد المغرب دقّ الباب، فتح أبي ليجده أمامه.

أغلقَ في وجهه الباب، ولكنّ أحمد دفع الباب وبدأ في التوسّل إلى أبي: (أرجوك يا عمّي، اسمعْ منّي، واللّي انت عايزه كلّه هنفّذه، من فضلك المرّة دي بسّ أرجوك علشان خاطري).

أدار أبي وجهَه، وبمُنْتهى العجرفة قال: (اتفضّل يا سي روميو أمّا نشوف اللّي عندك).

دخل أحمد ووجهُه يكتسي بالاصْفرار، ودقّاتُ قلبه أكاد أسمعُ صوتَها في آخر بيتنا، وقلبي تزداد دقاتُه نبضًا، وسر نبضاتِه حبّه الذي يسري في جسدي يومًا بعد يوم، واستطردَ حبيبي قائلًا: (دلوقتِ أنا نفسي أعرف سبب رفض حضرتك إيه؟ من ٣ سنين كان مع حضرتك حقّ فعلًا، إنّما النهارده أنا الحمدُ لله اشتغلت في شركة.. الكلّ بيحلم بيها.....

قاطعه أبي: (رافضك علشان استغفلتوني وأنا يا حبيبي ما بجوّزش بنتي لواحد طعنّي ومشي معاها).

أحمد: اسمحْ لى يا عمّي، ده ما حصلش، كلّ الحكاية إنّها فضلت في بالي لحدّ ما لقيت إنّي بقيت كفْء ليها، أرجوك ما تكسرش قلبي، أنا عمري ماهلاقي في تربيّتها وأخلاقها، وأوعدك إنّي عمرك ما هتندَم على موافقتك، ومستعدّ لأيّ طلبات إنتَ عايزها.

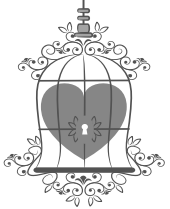

والدي: مفيش طلبات غير إنّك تبعد عن بنتي، أنا ماعنديش بنات للجواز للمرّة التانية، ولو انتَ آخر راجل في العالم مش هجوّزها لك.

تنهّد أحمد تنهيدةً مليئة باليأس: ليه يا عمّي طيّب، إيه السّبب؟!

والدي بمنْتهى البرود: ما عنديش أسباب، وأنا حرّ، الموضوع انتهى، والكلية خلصتْ، وانسى إنّك عرفتها، وعيش حياتك وهي كمان هتعيش حياتها.

أحمد: بسهولة كده، يا ريتها سهلة زيّ ما حضرتك بتقول.

وهمّ أحمد بالانْصراف ووجّه لأبي كلامًا بشكلٍ صارم: إنتَ كده بتظْلمنا، وأنا حقيقي مش عارف إيه السبب، بسّ اللّي أعرفه إنّي لحدّ آخر نضفَس مشً هتخلّى عنها، ولو ماعرفتش أوصل لها وكنت انتَ العائق، عمرنا ما هنسامحك، وهتفضل عايش بذنب ظلمك ليها ولأمّها ولاخواتها طول حياتك.

صرخ أبي: أنا هتعلّمني يا..... اطلع برّه.

وذهبَ أحمد، أمّا أنا فلم أعدْ أقوى على الوقوف من اليأس والحزن، شعرتُ وأنّ هموم العمر كلّها أثقلتني وتتكاتفت على طرحي أرضًا.

استجمعتُ قواي، وذهبت سريعًا إلى النافذة لكي أرى أحمد، ووجدتُه ينتظرني، وعندما رآني نظر بعينين مكسورتين، والحزن والدّموع تملأهما، وكانت نظرتُه تلك أكبرَ من كلّ همومي السابقة، فهو الوحيد الذي كنتُ أستقوى به، والآن استسلم فأين لي بمصدر قوّة أخرى.

استفقتُ على صوت والدي وهو يصرخ صراخًا هستيريًّا: الموضوع ده قفلتُه، وعلى الله أسمع سيرته تاني، ها قتلك لأنّي ما تعاندش.

وبعد ساعتين، أو قولي سنتين في زمان حزني، هاتفني أحمد، وبصوتٍ مليء بالحزن: أنا ما كنتش متخيّل ردّ فعل والدك يبقى بالشّكل ده، ليه كده؟ على العموم إحْنا عارفين إنّ الموضوع مش سهل، بسّ صعوبته دي من إيه مش لاقي لها سبب علشان أحلّه، فكّري معايا، ساكتة ليه؟

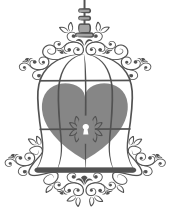

وأنا صوتي وروحي حُبسَا في سجن حزنه ويأسه الذي بدأ يتسرّب إلى نفسه: مش عارفة أقول إيه، بسّ كلّ اللّي أعرفه إنّي مستعدة أحارب معاك لآخر نفس.

أحمد: وده كفاية عليّ يا عمري أسمعُه منّك، ولا تشيلي همّ، كلّه هيهون.

أغلقتُ الهاتف، وأنا أشعر أنّ قضبانًا أحكمت قبضتَها عليّ برغم كلماته الدّاعمة، ومرّت الأيّام ونحن نزداد تمسكًا ببعضنا البعض، أصبحت أقابلُه بمفردي، وأزداد صدقًا في كذبي على أهلي، وأزدادُ صدقًا في عشقي له، وأزدادُ خوفًا من خسارته.

وقرّرنا المحاولة مع أبي مرّات ومرّات حتّى تخطّت مرّاتُ طلبي من أبي إلى العشْر مرّات في ٣ سنوات، وفي كلّ مرّة يزداد أبي إصرارًا على الرفض، وتماديًا في الإهانات، وأزدادُ أنا كرهًا له وكرهًا لنفسي وحظّي العثر.

حتّى جاء اليوم الذي أخبرتُ فيه أحمد أنّني على استعداد أن أتزوّجه رغمًا عن أبي مادام أهله يحبّونني، وأنا وهو نملك ما يكفينا لإقامةِ بيتٍ مستقرّ، وأنا لا أملك أيّ شيء أبكي عليه في بيت أهْلي، والأيام تأخذ من شبابي دون أيّ أيام مقابل.

أحمد، وعيناه مفتوحتان من صدمةِ ما قلته: مع إنّي مش مصدّق إنّي مُمكن أعملْ كده، لكن سيبيني أعرض الموضوع على أهلي لأنّ الموضوع مش سهل أبدًا، ونشوف رأيهم إيه.

وبعدها اختفى أحمد يومَيْن، حاولتُ الوصول إليه بكلّ الطرق ولم أستطع، فيومان دونَ أن أسمع صوته في عمْر حبّنا دهر بأكمله، اضطررتُ على أثر ذلك أنْ أذهب إلى بيته دونَ استئذان، لأجد أحمد طريحُ الفراش ولا ينطق بكلمة، ووجوه الجميع غير الوجوه التي كانت تقابلني من قبل.

وأنا في ذهول: ما لكْ يا أحمد! في إيه؟ ليه مابتردّش عليّ، أو حتّى حضرتك يا عمّو أو إنت يا طنْط، حدّ يردّ.

والد أحمد مطأطئًا رأسه: بصّي يا أماني حبيبتي، ربّنا وحده اللّي يعلم غلاوتك عندنا و إننا عمرنا ما تخيلنا حد مكانك، وعلشان كده إتحملنا كلّ الإهانات بصدر رحب، لكن اللّي طلبتيه من أحمد ده مستحيل أوافق عليه مهْما كان القرار ده هيكلّفنا حزن ووجع، لكن يا بنتي أنا عندي ولاد، ومارضاش أبدًا إنّ حدّ يعمل فيّ كده، أنا أبّ وحاسس بأبوكِ لو عرف إنّك اتجوّزتِ من وراه مُمكن يجرى له إيه.

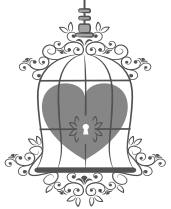

أنا بنظراتٍ مليئة بالتوسّل بأن يتوقّف عن تلك الكلمات: هوّ حضرتك فاكر إنّ أبويا أبّ زيّ الناس، ده مش بيفكّر غير في نفسه، ورفضُه لجوازي أكيد علشان حبّ تملّك مش أكتر، صدّقني يا عمّو، وبعدين إحنا حاولنا قدّ إيه، وأنا خلاص ما بقتش صغيرة وسألت في شرعيّة قراري ده، ومالقتش فيها حرمانيّة، مادام ماعندوش سبب مقنع.

والد أحمد: بسّ إحْنا مش عايشين لوحْدنا يا بنتي، وأنا ماقدرش، النّاس تاكل وشّي، وماقدرش مافرحش بابني الوحيد زي الناس، فمعلشّ هنتعب شوية بسّ محدّش ليه يد في النّصيب، من النهارده مفيش كلام بينكم أكتر من إخوات وأصحاب علشان العيش والملح وبسّ يا أماني، الزّمن أكبر دواء للنّسيان يا حبيبتي، بسّ إدّي له فرصة، توْعدينى حبيبتي؟

نظرتُ لأحمد متوسّلة أنْ أسمع منه تلك الكلمات المسكّنة التي طالما عشتُ بها سنوات وتحمّلت بها آلام يقيني أنّ فراقه حتمي، لكني لم أجدْ غير عينين لم أستطع حتّى أن أراها وأضمّها إلى قلبي لآخر مرّة من دموعه المنهمرة ورأسه المطأطأة.

وأخذتُ طريقي إلى باب البيت، وفي كلّ خطوة أخطوها أتمنّى أن أسمعَ صوت أحدٍ منهم أنّهم يمزحون معي، أو أنّي في كابوس وليس واقعًا، خرجتُ إلى الطريق محمّلة بمهانةٍ لم أتخيّلْ أن أتذوّقها بعد كلّ تلك السنوات من العشق والأمل، محمّلة بأطنان من اليأس الذي لم أتذوّقه طوالَ حياتي برغم بؤسها، ووصلت للمنزل لا أعلمُ كيف! ودخلتُ غرفتي أتمنّى أن تنهمر دموعي لكي أزيح هذا الثّقل من على قلبي، ولكنْ هيهات! حتّى الدّموع احتبست من هوْل الواقع.

ودخلتْ عليّ أمّي: أنا بكلّمك على فكرة! إنتِ مش سمعاني؟ ما لِك فيكِ إيه إنتِ وشّك اسود كده ليه؟

وأنا لم أردّ بأيّ كلمة، ونظرت لها نظرةَ لوم تمنّيت أن تنطق وتدعوَ عليها، وذهبت بعدها في نوم عميق، وظللتُ ثلاثةَ أيّام أستيقظ لأنظرَ في هاتفي علّه اتّصل بي، ومن ثمّ أعود إلى النّوم مرّة أخرى.

وذهبتُ في اليوم الرّابع إلى عملي، وكأنّي شخص جديد لا أعرفه، شخص بلغَ من العمر أرذله، شخص لا يرى أيّ لونٍ في الحياة، أصبحتُ أمشي في الطّرقات والمطاعم التي كنّا نجلس فيها، كانت أحلام اليقظة هي سبيلي الوحيد للبقاء على قيد الحياة.

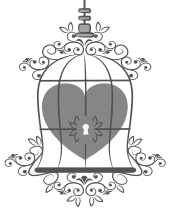

ومرّ على فراقنا- الذي أرغمنا عليه احترامًا لوالده- ثلاثةُ أشهر، لا تستطيع الكلمات وصفَ قلبي وما آلَ إليه، فقدتُ فيها وزني وشهيّتي للحياة برمّتها.

قابلتُ صديقنا آسر بالصّدفة، فكنت أتجنّب أيّ شخص يذكّرني به، حتّى لا يسألني عنه فأضطرّ إلى أن أتذكّر أنّنا لسنا معًا ولا أعرف عن توأم روحي شيئًا.

آسر: في إيه يا بنتي؟ إيه اللّي حصل فجأة كده؟ هيّ السّبب واللّا إيه، يا ريتنا كنّا صدقناك لمّا قلت لنا في المشروع.

أنا:إنتَ بتتكلّم عن إيه؟ مش فاهمة حاجة!

آسر: إنتِ بتستعبطي واللّا فعلًا مش فاهمة، أنا أخوكم يا بنتي، مش زيّ الباقي.

أنا: بجدّ في إيه؟

آسر: إنتِ ما تعرفيش إنّ أحمد ونهى اتْخطبوا.

أنا وتزلزلتِ الأرضُ من تحت قدمي، ولم أشعر إلّا وأنا في المستشفى، والجميع حولي مِن أصدقاء وأهل إلّا أحمد، وسألت آسر بعيني: أين هو؟

طأطأ رأسَه وأنا فهمت أنه مُنع، وبدأت أسأل نفسي كيف لهذه الدّنيا أن تتبدّل في لحظة غير عابئة بألم مَن يسكنها، كيف استسهل أحمد ذلك الأمر، وانساق مع الجميع إلى إيلامي بهذا الشّكل الفجّ، كيف هانتْ عليه كلّ تلك السنوات؟ أيعقل كما أنّه ظهر فجأة في حياتي، يخرج منها فجأة، وبهذه الصورة؟!

واستفقتُ على صوت أمّي: لسّه في عزّ شبابك، وجالك جلطة! ناقصك إيه تاني؟ حرام عليك نفسك يا بنتي، عيشي لنفسك شوية.

ابتسمتُ باستهزاء، وقلتُ في نفسي: البركة فيكم، منْكُم لله.

وآسر مخترقًا للصّمت: يلّا قومي شدّي حيلك، شدّة وتْزول، وإنتِ طول عمرك قويّة.

وبعد أسبوع، خرجتُ من المستشفى، وهو حتّى لم يقدّم واجب الصّداقة ويسأل عنّي، أو يطمئنّ عليّ من أحدٍ من أصدقائنا، أصبحت أتسوّل أخباره من أيّ حدّ يعرفنا من بعيد أو قريب، والجميع

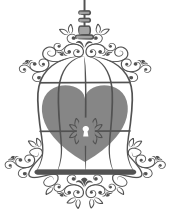

يتهرّب من الإجابة، ولم يجبني غير آسر في مرّةٍ بجُملة (هي خططت وانتُم ادّتوها فرصة تنفّذ خطّتها للأسف).

كلماتُه أشعلت بداخلي نارَ الانتقام ونارَ اليأس في أيّ فرصة نعود فيها مرّة أخرى أنا وحبّ عمري، وقلت له: عارف يا آسر، أكتر حاجة وجْعاني إيه؟ هو الغدر المباغِت، وبالذّات لو كان من حدّ كنّا فاكرينه أقرب حدّ لينا.

عدتُ إلى عملي، والجميع احتفى بي، وأبلغوني أنّي في غاية الأهمّية عندهم، وأنّي أملك طاقةَ أملٍ تحوّل أيّ مكان إلى بهجة، وترجوني أن أظلّ متمسّكة بتلك الطلّة التي هي مصدرُ إلهام للجميع، ابتسمتُ ابتسامةَ المهزوم هزيمةً مروّعة، ومازال متمسكًا بشعور الانتصار.

باءتْ محاولاتُ الجميع بالفشل في استعادتي، فأنا- دونَ مبالغة- تحوّلت إلى إنسانة لا أعرفها مطلقًا، إنسانة تجرّني جرًّا أن أعيش بشخصيّتها المقيتة، مع بقايا من شخصيّتي القديمة.

الرّحلةُ السّابعة

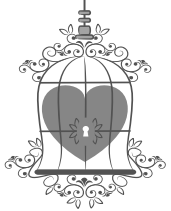

ومرّت الأيام لا فرقَ بينها، وكلّ يوم يمرّ يؤكّد لي أنّي فقدت حلمَ حياتي ويطفئ بداخلي شيئًا جميلًا، إلى أن أصبح داخلي شديدَ الظّلمة، وظاهري شديدَ البهجة، تمرّست على الكذب.. حتّى أصبحتُ بوجوه عديدة، وعندما أختلي بنفسي وأعيد شريط ذكرياتي، أتعجّب من الدنيا التي لا تعطي إلّا للخبثاء، وأظنّني سرتُ في طريقي إلى اكتساب تلك الشخصيّة المليئة بالخبث أملًا في أنْ تعطني الدّنيا مرّة واحدةً في حياتي.

وكلّ هذا حدث بداخلي، ولم يمرّ غير عامٍ على فراقنا، عامٌ عشت فيه على الذّكريات التي كنت أتمنّى أن أفقد ذاكرتي كي أتخلّص منها.

علمتُ من آسر أنّ أحمد وصديقتي المصونة اقتربَ موعدُ زفافهما، حزنت يومَها حزنًا شديدًا، ولكنّي كنت على أمل أن يعود.

سألتُ آسر وأنا لا أستطيعُ أن أخفي دموعي: وهوّ فرحان وهوّ بيقولّك كده؟ معقول نسيني؟ معقول متخيّل نفسُه مع حدّ غيري؟

آسر: تصدّقيني لو قلت لك على قدّ ما هو بيرسم الفرحة بسّ جوّاه مطفي، جوّاه إنسان سايب نفسه للظّروف تشيله وتحطّه.

أنا: مِن إمتى وهوّ كده؟ ده أنا اللّي اسمي أنا كان عندي استعداد أحارب الدّنيا كلّها علشانه، واتعلّمت منه الإصرار.

وليه هيّ بالذّات؟ يمكن هيبقى وجَعي أقلّ لو كان اختار أيّ واحدة تانية.

آسر: أماني... هيّ بقى واللّا غيرها، أهو مش نصيبك وخلاص، عيشي حياتك وكمّلي طريقك، إنت أكيد ربّنا شايل لك خير أحسن منه.

أنا: تفتكر في أحسَن منّه؟ أوْ تفتكر إنّي هسمح لحدّ يسكني بالشّكل ده بعده؟

أحمد خدْني وأنا جوّايا صحراء جرداء، ورسَم جوّايا خريطة الحبّ، وحدّد حدودها، فمستحيل حدّ هيعرف بعده يغيّرها بالرغم إنّ مدينة الحبّ اللّي رسمها بقت مسكونة بالأشباح، إنت مستهْوِن بالعدوان الثّنائي اللّي دمّرها؟

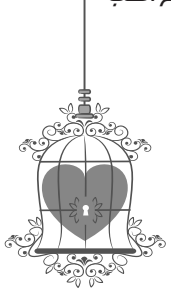

آسر: المهمّ إنّ لسّه فيها ملامح المدينة، وبكره أكيد هتلاقي اللّي يعمّرها، صدقيني إنت إنسانة من الزمن الجميل، وألف من يتمنّاكِ.

ومرّت الأيام وبدأتْ قناعاتي كلّها تتغيّر من الذي مررتُ به، بدأت أكتسب قوّة داخلية يومًا بعد يوم، أو إن كدت قولي قرّرت أن أكتسب تلك القوّة من كلّ أزمة، وسندي فيها كان عملي وتحقيق ذاتي.

أصبحَ كلّ تركيزي على عملي فقط، غير عابئة بكلماتِ الحبّ الصادقة أو الكاذبة ممّن حولي، وتقدّم لخطبتي الكثيرون وأنا أرفض العريس تلوَ الآخر دون أيّة مبررات، وكلّ مرّة أرفض فيها أكتسب قوّة داخلية أكبر، حتّى ولو كان الرفض ليس في صالحي، ولكنّه رفاهية كنت لا أقوى عليها.

وأمّي في كلّ مرّة أرفضُ فيها تنهار وتوبّخني وتهدّدني بأنّ العمر سيسرق منّي، ولن أستطيع أنْ أملي شروطي بعد ذلك، وأنا لا ألقي بالًا، وأزداد تمسّكًا بمكانتي العملية.

وفي يوم كئيب من أيام حياتي استيقظتُ على صراخ أمّي بهستيريا، ولا أستطيع أن أفهمَ شيئًا منها، وإذْ بالمفاجأة المدوّية للجميع، والمنطقية بالنسبة لي أنّ والدي تزوّج من امرأةٍ أخرى، شيء متوقّع من شخص لا يلقي بالًا إلّا لمتعته الشخصية.

وبدأتْ أمّي تخطّط في اكتشاف مَن تلك المرأة التي اختارها أبي بعد ما يزيدُ عن ثلاثين عامًا من زواجهما، زواجهما التي كانت هي فيه نهرَ العطاء له إلى أن جفّف منابعه بعدما ظلّ يرتشف منه دون رحمة.

وبعد محاولاتٍ كبيرة توصّلنا لهوية تلك الشّمطاء التي قرّر أبي أن يهدّ بيتًا بأكمله من أجلها، وممّا زاد الطين بلّة أننا علمنا أنه يعرفها منذ خمس سنوات، أي كان يرفض أن يتمّ زواجي بأحمد حتّى لا يستنفذ المال الذي سيتزوّجها به.

وكلّ تلك الصّدمات تزيد أمّي وهنًا، وتزيدني أنا صلابة، صلابة من كرْهي لوالدي الذي أدركت أنه أصبح الآن سببًا في تعاستي مدى الحياة، اختار أن يقتل نفسًا وهي على قيْد الحياة من أجل نفسه، ما الذي تظنّين أن أحمله من مشاعر؟!

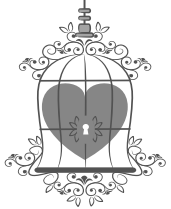

وعلمَ أبي أنّنا علمنا، وكنّا نظنّ أنه سيتمسك بالإنكار، ولكنّ المفاجأة أنه أقرّ واعترف: (وإذا كان عاجبكم تعيشوا معايا وهيّ على ذمّتي، وأنا حرّ أعمل اللّي أنا عايزه)

وبعد صراخ من أمّي وإخوتي وأحزانٍ استمرّت لمدّة شهر استسلمتْ أمّي بأن تظلّ على ذمّته مهما بلغت آلامها، وأخبرتني أن آلامها الآن أهونُ بكثير من آلام فراقها له.

وما أحزنني هو ذلك الشعورُ بالتشفّي داخلي لما يحدث لها، ووجدتُ نفسي الأمّارة بالسوء تخبرني أنّ الله ينتقم لآلامي، حزنت لأنّي لم أكنْ أتخيّل أن أصل لهذا السّوء، ولكنّي لم أقاوم ذلك الشعور، بل أصبح كلّ مَن حولي مِن العائلة وأخواتي يبكون لتلك الصدمة وأنا الوحيدة التي تظهر عليّ علامات الفرحة، والجميع يتعجّبون؛ بل إنّ أحد قريباتي اتّهمتني بالجنون من يوم أن فارقت أحمد.

وبدأت رحلةُ معاناة جديدة في حياتي، ومعاناتي القديمة لم ينتهِ أثرُها بعد، كلّ يوم صراخٌ بين أمّي وأبي، وأنا أحاول بما بقى لي من طاقةٍ أن أحتضنَ إخوتي لكي يمرّوا من ذلك النفق العميق المظلم.

وكأنّ الدنيا تصرّ على أن لا نرى منها غيرَ الوجه القاتم، ولا أعرف لماذا؟

فوجئنا بتلك الشّمطاء تدخل إلى منزلنا مع والدي، وفي ذهولٍ نصرخ فيها أن تخرجَ، وإذا بها تخبرنا أنّ والدي كتب كلّ ما يملك لها، وأصبحنا نحن ضيوفًا عندها، ولوْلا إصرارها على التّظاهر بالحبّ لوالدي لطردتنا شرّ طردة.

ووالدي ذلك السّي السيد لا يردّ لها كلمة، ونحن جميعًا ننظر في ذهول، وتركتنا ورحلت.

وبدأتْ مع رحليها رحلتي في التّفكير في الانفصال عن أبي التي طالما حلمتُ بها، احتضنتُ أمّي وطمأنتها أننا سنشقّ طريقنا معًا ونرحل نحن قبل أن نطرَد، وسنتركه ليرى شرَّ عمله مع تلك الشّمطاء، فهي التي ستخلّص منه ذنبنا جميعًا.

ولم تحتملْ تلك القذرة أكُرَ من ثلاثةِ أسابيع، وإذا بنا يقرع بابنا محضرٌ من المحكمة يأمرنا بإخلاءِ المنزل، مشهد كنّا لا نراه إلّا على شاشات السينما، نظرنا إلى بعضنا لا ندري أين نذهب؟ ولِمَن؟ اسودّت الدّنيا في عيني، ولم أعدْ أرى غير شماتة المدعوّة صديقتي.

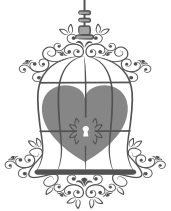

وألحّت عليّ مرّة أخرى تلك الأفكار، هي الآن تعيشُ أحلى أيام عمرها، وأخذت كلّ ما خطّطت له، وأنا لم أحصل على أيّ شيء، خسرتُ كلّ شيء، لماذا؟!

اتّصلت بخالي، وطبعًا في البداية رحّب بقدومنا عنده، ولكن ذلك لم يدمْ طويلًا، لم يدمْ أكثرَ من ستّة أشهر، بعدها بدأت زوجته تتذمّر، وتشعرنا بثقل وجودنا.

اضطررتُ على أثر ذلك أن أبحثَ عن شقّة نستأجرها، وازددتُ إصرارًا أنْ لا أنظر خلفي أبدًا، وأن أبذل مجهودًا مضاعفًا للهروب من ذكرياتي، وشعور الانتقام سيكون هو وقودَ المرحلة القادمة.

لن أستسلمَ، جاء دوري الآن، السّيطرة التي طالما حلمتُ بها، ولن ألقي بالًا لأيّ هراء وعويل من أمّي وإخوتي.

استأجرتُ شقّة في منطقة راقية، وبرغم إيجارها الذي كان يأكلُ نصفَ راتبي إلّا أنّي لا أرى غير أنْ لا أسمح بشماتة أحدٍ فيّ، وقرّرت أن أقدّم على الماجستير ليزيدَ دخلي، وفعلًا قدّمت للسّنة الجديدة في جامعتي.

وأنْ أبدأ في مشروع خاصّ بي لكي أقوى على النّفقات، ونعوّض كلّ الذي فاتنا من حياة.

واتّفقتُ أنا وإخوتي أن نعملَ وندرس في نفس الوقت، فالمشوار ليس بالهيّن، ولا بدّ أن نركض لننهيَه، وأن تتولّى أمّي إدراة المشروع تحت إدارتي، فالموضوعُ أبدًا ليس بالهيّن عليها، فهي لم تعتَدْ أن تقفَ فى وجه أي شيء، ولكنّي أخبرتها أنّ الآن دورها لكي تكفّر عن ما اقترفته في حقّ نفسها وحقّنا من العيش مع زوجها. وكالعادة ككلّ حياتي مواقف تظهر فجأة وتختفي فجأة، تحوّل بيتَنا فجأة لخليّةِ نحلٍ، كلّ منّا يعلم دوره.

وأنا لا أدري لماذا أفعلُ ذلك، هل ليرى الجميعُ أنّي الآن لم أعدْ مضطهدة؛ بل أصبحت الآمرَ الناهي، أم فعلتُ ذلك لأنّه مازال بداخلي بقايا من شعور.

الرّحلةُ الثّامنة

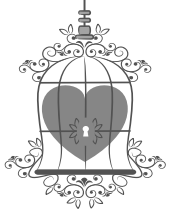

وبدأت الدّراسة في جامعتي مرّة أخرى، دخلت الجامعةَ وهاجمتني الذّكريات، أصبحت أمشي في الجامعة وبداخلي منتهى الحنين مع مُنْتهى الحزن يتصارعان أيّهما يسكنني.

كنّا هنا نأكل، وهنا أوّل مرّةٍ اعْترف فيها بحبّه لي، وهنا فاجأني، وهنا انتظرني، وهنا، وهنا.....

لا أستطيع الهروبَ من مكان إلّا وأجدُه في مكان آخر حتى كدت أتراجعُ عن قراري، ولكنّي تذكّرت طعنته لي، وأقسمتُ أن لا أعودَ للوراء مهْما كلّفني ذلك من ألم.

ولا أنكر أبدًا أنّ بمرور الوقت بدأتْ آلامي تدفن تحت إنجازاتي، وبرغم حزنٍ مرسوم على وجهي، إلّا أنّ مشاعري جفت ولم أعدْ أحزن أو أفرح أو أنبهر.

ومرّت سنة الدّراسات العليا بتفوّق منقطع النظير بالنسبة لي، ومشروعي الخاصّ في تقدّم بفضل آسر وأمّي، واستقرّت أوضاعنا الماديّة، وانقطعتْ أيّ صلة بوالدي، وهذا الشيء الوحيد الذى كان يسعدني برغم إنجازاتي التي لم أتوقّع في يوم أن أصلَ إليها في وقت قصير.

وبدأت أحضّر للرسالة؛ فأنا أخطّط أن أنتهي منها في خلال عامَيْن، واخترتُ المدرّس الذي كنت أودّ أن أدرس معه، ووافق عليّ بكلّ ترحيب.

وكان أستاذي من أهمّ المدرّسين في النقطة التي أودّ أن أعمل بها بحثي، فرحتُ جدًّا بموافقته على أن أكون من تلاميذه؛ لأنّي لم أكن أتوقّع أن يقبلني كعادتي في نظرتي الدّونية لنفسي، وصارحته بمشاعري تلك، وفوجئت أنّه قال لي: (أنت شرفٌ لأيّ حدّ يعرفك، أنا اللّي فرحان إنّك اختارتيني).

ابتسمتُ لمجاملته، فأنا لم أرَها غير ذلك، واتّفقنا على موعدٍ أسبوعي نتقابل فيه لنمضي قدمًا في رسالتي بعدما عرضتُ عليه خطّتي وهدفي، وكان هذا سببًا مقنعًا لي في حماسِه الشّديد أن نتقابل أسبوعيًّا، كنت أظنّ الأمر طبيعيًّا.

ومرّت الأسابيع، وفي كلّ مرّة نتقابل كان حريصًا أن يتحدّث عن حياته وذكرياته والتّحديات التى مرّ بها، ولا أنكر أنّي أدمنت حديثَه؛ فكان هو الحافزَ لأن أكمل لما رأيته من انتصاراته التي ولدت من رحِمِ تحدّيات مؤلمة.

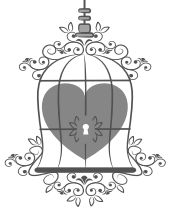

وفي يوم باغتني بسؤال: إنتِ ليه حزينة كده دايمًا؟ حتّى الضحكة بتخرج بالعافية منّك!

أنا: دي طبيعتي، ببان كده ويمكن من كتر المسئوليات.

د. محمد: طيّب مُمكن أساعدك في أيّ حاجة؟

أنا: إنتَ ساعدتني فعلًا بالكلام اللّي بسمعه منّك، بروح أفكّر بيه، وفعلًا بيدّيني طاقة رهيبة إنّي أكمّل معافرة.

د.محمد: طيّب تسمحيلي أطلب منّك طلب؟

أنا: طبعًا اتفضّل.

د.محمد: أنا عايز أقابل بباكِ.

أنا دخلتُ في نوبةٍ من الضّحك حتى البكاءِ الشّديد، وهو في ذهول، وأخذت أدواتي وتركت مكتبَه، والعجيب أنّي ذهبت إلى المنزل ولم أفكّر حتّى في الذي قاله لي.

وفي الليل وجدت رقمَه على هاتفي: آلو، أهلًا دكتور، في حاجة؟

د. محمد: إنتِ إيه ردّ الفعل الغريب اللّي عملتيه ده؟ إيه اللّي قلتُه علشان تضحكي، أو إيه اللّي قلته علشان تعيّطي، إنت شكلك نكديّة واللّا إيه!!.

وكأنّ عقرب لدغني فكانت تلك هي كلمة أحمد: لو سمحت دكتور، شفتني فين علشان تحكم عليّ كده؟ مفيش بينّا غير رسالة وبسّ، ولو الرّسالة هتكون هي مسمار جُحا اللّي هيخلّيك تكلّمني كلّ شوية؛ بلاها أحسن.

د. محمد: لا.. لا، اهدي بسّ، أنا آسف، أنا بعتبرك حدّ قريّب منّي، فيمكن علشان كده تطاولت من عشمي.

أنا: لا قريب ولا بعيد، إنت دكتوري وبسّ، سلام عليكم.

وظللت طولَ اللّيل أفكّر كيف تجرّأت عليه بهذه الصورة، كيف لشخصٍ له هيبته ومكانته ويتكلّم معي بكلّ هذا الضعف.

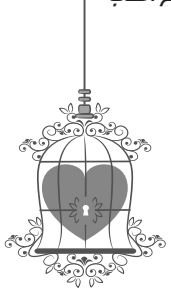

أأحبّني؟!

متى؟ وأين؟!

وهل مازال هناك مَن يحبّ بهذه السرعة؟!

هل تجرّأت عليه لأنتقم من أحمد؟ وما ذنبه؟

شخصٌ أراد أن يعيد ترْميمي لماذا قسوتُ عليه هكذا؟

هل تحوّلت لمريضة نفسية تحتاج العلاج؟

وظلّت الأسئلةُ تداهم فكْري حتى غلبنى النوم.

وفي الصّباح، قرّرت أن أهاتفه وأعتذرُ إليه، ولكنّي وجدت هاتفه مغلقًا، وظلّ مغلقًا لمدّة أسبوع.

جاء موعد مقابلتنا الأسبوعية، وجدته ليس كحالته كلّ أسبوع، هذا الأسبوع وجهُه شاحب، وعينه وكأنّه لم يذقِ النوم، قرعت الباب وسمحَ لي بالدخول، ونظر إليّ نظرة مليئة باللوم الشديد.

أنا: إزّي حضرتك، أنا بعتذر جدًّا صدّقني، أنا حاولت أكلّمك وموبايلك مقفول بقاله أسبوع.

د. محمد: أيوه، كنت مسافر أفصل شويّة.

أنا: طيّب قبلت اعتذاري؟

حقيقي أنا آسفة، وفعلًا ما عرفش عملت كده ازّاي؟ حضرتك غالي عندى وبثق فيك، وبالنسبة لي مصدر دعم، بسّ يمكن شوية تجارب سلبية بتخلّينا نتصرّف غلط مع النّاس الصحّ، اللّي غالبا ما بيظهروش غير في الوقت الغلط.

ابتسمَ وتحوّل وجهه نضرًا في أقلّ من ثانية، وكأنّ شيئًا لم يكن، وقال على استحياء: بجدّ أنا غالي عندك! طيّب ممكن أعرف إيه التّجارب دي، يمكن أسامحك.

وأنا لا أفكّر إلّا في صورته أمام الجميع، وأقارنُها بصورته الآن، وأيقنت فعلًا أنّه يحبّني وحبًّا شديدًا ، وأنا لم أدرك إلّا متأخرًا، وأشفقتُ عليه لأنه جاء في وقتٍ ماتت بداخلي فيه أيّ رغبة في الحياة، في وقتٍ نسيت فيه أنه مازال هناك أناسٌ بيننا بهذا النقاء.

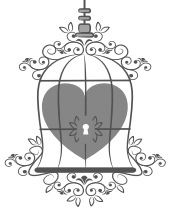

د. محمد: إنتِ رُحتِ فين ما بترديش ليه! بقولّك أنا بحبّك وبحترمك، وهكون سعيد إنّك تكمّلي معايا رحلتي.. تعرفي أنا كنت رافض إنّي أرتبط، ومركّز على نجاحي المهني بسّ، وكنت بشوف فيه مصدر قوّتي بعد ما اتخذلت من أقرب النّاس لي، ولكن لمّا شُفتك حسّيت إنّ انتِ العوض اللّي ربنا هيعوّضني بيه.

أنا: كلامك كبير قوي عندي، ولكن كلّ اللّي أقدر اقوله لك إنّي منهكَة، ومشاعري مشاعر شخص عنده ٨٠ سنة، أنا مش برفضك لشخصك، ولكن بقولّك لأنّك عزيز عندي.. انفد بجلدك؛ لأنّ الشخص المهزوم عمره ما يقدر حدّ يتسنّد عليه.

د. محمد (بضحكته الرزينة): مع إنّي مش عارف إيه اللّي يستاهل يوصّل الجَمال ده لكده، لكنْ أنا مُدرك ده من أوّل يوم شفتك فيه، ويا ستّي خلّينا نتسنّد على بعض إحنا الاتنين مهزومين لايقين على بعض.

أنا: للأسف أنا رافضة الارتباط.

د. محمد: طيّب ممكن تفكّري؟ إدّي نفسك فرصة تشوفي الحياة من تاني، وصدّقيني عمرك ما هتندمي، أنا هعوّضك عن كلّ حاجة وجعتْ قلبك، اوْعدينى إنّك هتفكّري.

أنا: بوعدك.

وبداخلي الأمرُ محسومٌ تمامًا، ولكن شفقتي عليه جعلتني أريد أن أدرج له الرفض.

خرجتُ من مكتبه، وفي طريقي هاتفتُ آسر فهوَ مَن أثقُ أنه سيحلّ لي هذه المعضلة، حكيت له كلّ الموضوع، وتعجّبنا معًا كيف لم أشعرْ بهذا الحبّ!.

آسر: أنا رأيي تعرّفيه إنّك محتاجة وقت علشان تعالجي مشاعر سكناكِ، علشان تعرفي تدخلي علاقة بدون أيّ ندوب نفسية لأنه مالوش ذنب، وفعلًا تاخدي فرصتك، ويمكن ربّنا عمل كده علشان يعوّضك.

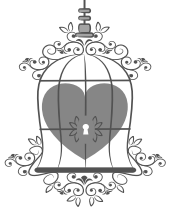

أنا: اللّي بتقوله ده مستحيل يحصل، أنا خلاص قفلت تمامًا باب قلبي بعد أحمد، ومُستحيل أسمحْ لنفسي يكون سجّاني راجل.

آسر: مش معنى إنّ الرّجالة اللّي مرّت في حياتك كانوا بيسجنوك يبقى كلّ الرجالة سجّانين، ما تعمّميش علشان تعرفي تحكمي على الأمور بعدل، ولا تظلمي نفسك، ولا تظلمي غيرك، المفرو ض إنّك جرّبتِ ظلم المشاعر ده، فمتدوّقيش غيرك من نفس الكأس.

وبالفعل في الأسبوع التالي قابلت أستاذي، ووجدت في عينيه لهفةَ المحبّ وانتظار الظمآن لكوب ماء، ووجّه السّؤال: أنا سبْتك براحتك تراجعي حسباتك، فيا ربّ تكوني فكّرتِ كويس.

أنا: عايزه أسالك سؤال، إمتى وصلت للحبّ ده كله والتّمسك ده.. وأنا مش حاسّة!؟ مش معقول ستّ شهور يوصّلوا حدّ لكده!!

د. محمد (بابتسامةِ عاشق): لا.. هيّ سنة ونصّ، من أوّل يوم شُفتك فيه في الدّراسات العليا، عجبني هدوئك، والحزن اللّي مرسوم في عينيك الجميلة دي.

أنا: طيّب قبل ما تزوّد في الكلام بقى، عايزه أكون صريحة معاك، أنا إنسانة جوّايا جرح بينزف بقاله ٦ سنين، وقبله تجربة سلبيّة لسجّان فضلت في معتقله ١٨ سنة.

ودلوقتِ بعد ما تحرّرت منه، وبجرحي اللّي عايشة بيه ما أقدرش أسجن نفسي جوّا أيّ تجربة جديدة؛ لأنّي هكون لسّه بعاني من ألم الطّعنات، ومن شدّة الألم هطلّع غضبي كلّه في أيّ شخص هيدخل حياتي، أو هخلّيه شخص كئيب زيي.. وعلشان قيمة حضرتك عندي؛ بطلُب منّك سبني أتعالج الأوّل، والحقيقة أنا ماعرفش مدّة علاجي دي هتاخد وقت قدّ إيه.

وأنا أقول ذلك، بداخلي أعتذر بلباقة لأهرب من الموقف دون أيّ خسارة لي.

د. محمد: موافق جدًّا، لو هستنّاكِ ٢٠ سنة، أنا لقيتك ومش مُمكن أتخلّى عنك، وهستحمل أيّ حاجة تساعدك في علاجك ده.

ابتسمتُ له، وبداخلي صراع ما بين أن أسمح لكلماته أن تلمس أوتار قلبي، أو أن أظلّ محتفظة به في سجنه، ولا أحرّره أبدًا.

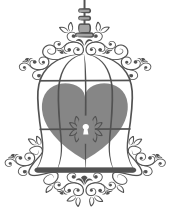

وسرْنا معًا لا يشغلنا أيّ شيء سوى الرّسالة، وكأنه ليس لديه أيّ رسائل أخرى، وأصبحنا لا نفترق تقريبًا إلّا وقت النوم، أصبح يعرف كلّ شيء عنّي، ويزداد تعلقًا بي كلّ يوم، وأنا أصارع أن يسكن قلبي كحبيبٍ، ولا أسمح لمشاعري إلّا أن تحبّه كأخ وصديق، مثله مثل آسر.

وبعد عاميْن ونصف العام، كما خطّطت، جاء موعد مناقشة الرّسالة، وكان هو قلقًا أكثر منّي ومن أمّي وأهلي، ولا أنكر أبدًا أن وجودَه بجانبي هو مَن جعلني مطمئنة وأتفوّق في المناقشة بشكلٍ أبهر الجميع، فكلّما نظرت له أستمدّ منه طاقة للتقدم أكثر وأكثر.

وبعدما أنهيت المناقشة صمّم أن يعزم الجميع على الغذاء احتفالًا بنجاحي، وعلى مائدة الطعام طلب يدي من أمّي، وقدّم لي خاتم الخطوبة، للأسف لم أشعر بأيّة فرحة أو حماسة، واكتشفت أنّ أحمد مازال يحتلّ مدينة قلبي عندما نظرتُ إليه وتمنّيت من كلّ قلبي أن يكون خاتم أحمد.

صدمتْه ردّة فعْلي، ولاحقني بسؤال: إنتِ مش موافقة واللّا إيه؟

وكأنّه وجد لي مخرجًا من الحرج: للأسف، إنت فاجأتني وأنا مش مستعدّة، وإحنا كنّا متّفقين.....

د. محمد: مرّ سنتين على اتّفاقنا، وفي عمر مقابلتنا يعتبروا أكتر من سنتين، كنت فاكر إنّك حبّيتيني، كلّ تصرفاتك بتقول كده.

أنا: أيوه كأخّ وكصديق، وقلت لك اصبر.....

د. محمد (واحتدّ صوته، وقام من مكانه): أصبرْ إيه أكتر من كده!؟ إيه القسوة دي، إنسان عايش حياته وعنده ولدين دلوقتِ ولسّه موقّفة حياتك علشانه.. صدّقيني إنتِ إنسانه غبيّة وعدوّة نفسك، وأنا بعتذر على الوقت اللّي ضاع منّي ومنك، وبحتقر نفسي اللّي قرّرت ترمّم إنسانة ميّتة أصلًا، وبكره مش بسّ هيبقى أحمد وأبوك سجّانينك، لا.. هيزيد عليهم الوقت والفرص اللّي ضاعت منّك، سلام عليكم.

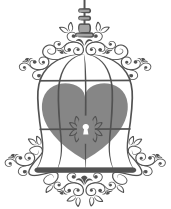

وجرى وراءه آسر، وأهلي ينظرون إليّ باحتقار شديد، وأصوات زفراتهم من شدّة الغضب كاد يسمعُها كلّ من في المكان، وأنا لا أشعر بأيّ ندم، بل شعرت أنّي تحرّرت من جديد، وكأنّه كان عبئًا علي، ولكن انتباني بعضُ الخوف من كلماته الأخيرة، وما لبثت أن نسيت خوفي هذا.

يا إلهي! فعلًا أنا مات بداخلي أيّ شعور إلّا شعور القسوة.. ولم تعدْ تجدي أيّ محاولات من أي شخص، ظننت أني تحرّرت من سجن أبي وأحمد، ولكنّي دخلت إلى سجن الذّكريات المؤلمة بقدميّ، بل والمضحك حتّى البكاء أني لا أريد أن أتحرّر منه أبدًا، وكأنّني أدمنت الشعور بالعبودية والألم!!.

الرّحلةُ التّاسعة

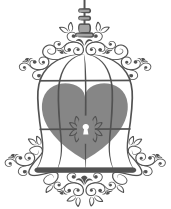

مرّت الشهور، وانقطعَ أيّ تواصل مع أستاذي فجأة كديْدن الدّنيا معي، ولكنّي علمتُ أنّه بدأ يجهز للهجرة.

وآسر لم يرحْمني من اللّوم والتّهديد بأني سأظلّ أندم على تلك الفرصة طوالَ حياتي، وأنا لا أرى ولا أسمع غير الذكريات مع أحمد عندما أستطيع أن أسرقَ من الزمن بضع دقائق، وكأنّ العمر الحقيقي توقّف عند عمر الرّابعة والعشرين، وبعده السنون تمرّ، ويا ليتني أقوى على أن أوقفها.

وفي يوم دقّ هاتفي، وسمعتُ صوت تلك الشّمطاء تخبرني أنْ آتي لأخذ والدي؛ لأنه مريض، ولا تقوى على معالجته، وأنْ لا أتأخّر عليها.

فرحتُ للحظات، وشعرتُ بالشّماتة، ولكن اكتشفتُ أنّ شعورًا بالمسئولية تجاه الواجب مازال بداخلي، ذهبت وأخذته إلى أقرب مستشفى فكانت حالتُه مزرية، وأخبرت أمّي، وما فاجأني أنّي وجدتُها تبكي ومتلهّفة عليه.

وبعد أسبوعين من العلاج، اضطررنا أن نحضرَه للمنزل مرّة أخرى، لتبدأ مرحلة جديدة من المعاناة، كنت أظنّني تحرّرت منها.

زادتْ عصبيّته، وزاد تحكّمه وغضبه لأنّه شعر أنّ كلّ ذلك الصّراخ والتّهديد، لم يعدْ يؤثّر علينا كما كان من قبل، فكلّ منّا يفعل ما يريده، ويسير في طريقه، وكأنّنا أخذنا القرار أنْ لاشيء سيوقفنا مرّة أخرى بعدما تذوّقنا طعم الحرية، ولم يعدْ إلى سجنه مرّة أخرى إلّا أمّي، وكأنّ ما كان لم يكن.

وبدأ العرسان يدقّون بابنا، ليس لي كما كان من قبل، فمثلي فاتَهم القطارُ كما يقولون، ولكن هذه المرّة لأختي.

ولا أخفي عليك أنّي شعرت بالحزن، وبدأت كلماتُ أمّي (إزّاي هاتجوّز الصّغيرة قبل الكبيرة؟)، (وكان قدّامك فرصة العمر وضيّعتيها!)، يكون وقعها كالسّياط على قلبي.

وأبي- وبرغم أنّي الآن عائلُ هذا البيت بعدما بدّد مالنا- لم يتوانَ في معايرتي ومناداتي (بالعانس).

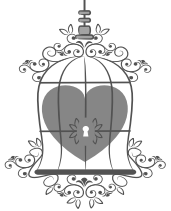

وبرغم أنّي أتظاهر أنّ الموضوع كان باختياري، ولكنّي بدأت أحقد عليهم جميعًا، وأشعرُ بالنّدم أني فرّطت في فرصة محمد التي كان يتمنّاها من همّ أصغر منّي ولا يجدوها، وأشعرُ بالضّيق الشديد عندما أتذكّر كلماته الأخيرة التي بدأت أشعر أنها تتحقّق.

وخُطبتْ أختي، وبدأت أنا مَن يجهّزها، ويحقّق لها كلّ طلباتها، وما قتل قلبي أنّني سمعتها تقول لأمّي أنّها تخاف منّي، وأنّني أحسدُها، وتقسم أنّني عندما أراهما معًا لا بدّ وأن يتشاجرا هي وخطيبها دون أيّ سبب.

طعنةٌ جديدة ممّن اعتبرتها كابنتي، كبتها داخلي وركّزت على عملي ودراستي كما تعوّدت الهروب إليهم مع كلّ طعنة.

بدأتُ أبكي كلّ ليلة، وللأسف بدأتُ أحاول أن أتواصلَ مع محمّد مرّة أخرى بحجّة الدكتوراة، ولكن بداخلي لكي يكون طوقُ النجاة لي من تلك الكلمات والنّظرات والمشاعر القاتلة، وما فاجأني

أنّه رفضني، وفي رأيه أنّ الفرص انتهت عنده، فهو ليس بحقل تجارب؛ بل له مقامُه وقدرُه، وودعني ويتمنّى لي الخير.

لم أَلُمْهُ لأنّي شعرت أنّه ينتقم لكرامته وغبطته لأنّه استطاع، ولم يسجن نفسه في وجودي جانبه.

فاتحتُ أمّي أنّني بدأت أشعر أنّي شخصٌ غير مرغوب فيه، وأخبرتها أنّي قرّرت أن أنفصل عنهم وسأستمرّ في الإنفاق عليهم، وما أحزنني أنّها لم تمانع، فأنا كنتُ عقبة لها في تعاملها مع والدي، فبرحيلي عن المنزل لن يلومَ عليها أحد أنها تنازلت عن كرامتها.

استأجرتُ منزلًا بعيدًا عنهم، ولأوّل مرّة أشعر أنّ منزلي قبر، الجميع... الجميع انفضّ مِن حولي، ولم يبقَ لي غير آسر وزوجته يسألان عنّي بين حين وحين.

وحدةٌ قاتلة لا تكفي أيّ كلمات لوصفها، أصبحتُ أكره دخولَ الليل فهو مَن كان يذكّرني أنّي وحيدة تعيسة، ولكنّي قرّرت أن أنخرطَ أكثر في عملي، ولا أركز في أيّ شيء غير عملي حتى الموت.

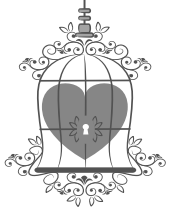

ومرّت الشّهور، ولا أحد يسأل عنّي من أهلي إلّا لطلب المال، ويكون طلبًا تليفونيًّا، وأرسله على حسابهم.

وكلّ يوم قبل نومي أتساءل ما الذي جنتْه يدي لأصل إلى تلك الحالة!؟ حتى إذا توفّيت لن يشعر بي أحد.

ماذا لو لمْ يحتاجوا المال إلّا بعد موتي بثلاثة أيام؟ يا إلهي لن يجدوني إلّا بعد التّحلل.

ولا يقطع تلك الأفكار إلّا انغماسي في نومٍ عميق كئيب من شدّة إنهاكي طوال اليوم.

وفي يوم، استيقظتُ على جرس الباب، ما هذا!! لم أطلب شيئًا، مَن يكون؟

وإذا بي أجد أمّي أمامي منهارة ومحطّمة: أبوكِ رجع لها تاني، وحلف ما هو حاضر فرح أختك، ولا كاتب كتابها، مجرّد ما شاورِتْ له تاني راح يجري عليها، إزّاي ما تعلّمش من اللّي حصل، إزّاي في شخص بالغباء ده؟!

ضحكتُ بسخرية: معلش.

أمّي: نفسي أعرف أنا قصّرت في إيه علشان يحصل فيّ كده! طول عمري بساعد النّاس، وبحبّ الخير للكلّ، إشمعنى أنا؟

أنا (بمنتهى اللامبالاة): لأنّك فضلتِ تعافري مع الشّخص الغلط، ومقرّرة لسّه تكمّلي معافرة، وكلّ ما يرميك برّه سجنه، تجري عليه بعِزْم ما فيكِ.. ها.. تشربي إيه؟

أمّي: عندك حقّ، خلاص أنا اتعلّمت فعلًا، ارجعي بقى املي علينا البيت، واقفي جنب أختك في محْنتها.

أنا (وبداخلي فيضان من الحزن): لا شكرًا، بطّلت أكون اسْتبن، بقيت خلاص حيطة مايلة ما ينفعش حدّ يتسنّد عليها.

أمّي: حرام عليك بقى، أنا مش نقصاكِ، كفاية عايشين كلّنا بهمّك وبسّ.

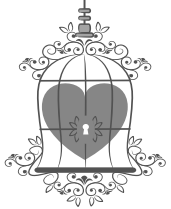

ضحكت ضحكة ملأت المكان، وحبست دموعي: فعلًا فعلًا، لو سمحتِ يا ماما، روحي شوفي بنتك، ولو احتجتوا فلوس أنا موجودة، غير كده سيبينى في حالي.

خرجتْ أمّي منكّسة الرأس، وبدأتُ أنا أستعدّ للدّخول في دوّامة يومي، ودارت بداخلي أسئلة مليئة بالتعجّب:

كيف لسجّان عتيّ كهذا الرجل يعرف أساليبَ التّعذيب والإنهاك النفسي لسجّانيه؛ يدخل بمنْتهى الغباء إلى سجن امرأةٍ أشدّ منه ضراوة وقسوة؟!

ألم ينتبه أنّهما متشابهان في الصّفات؛ فيسارع بالعودة إلى أدراجه قبل أن تفترس كرامته؟

ألم يدرك أنّه بذلك ينهي حياته بشماتة كلّ مَن سجنهم فيه، وهُم يرون هيبته وكرامته تنزف؟

كيف لسيّدة كأمّي تذوّقت أقسى معاني العبودية، وتذوّقت بعدَها معنى التحرّر تبكي كالطفل الصّغير كي تعود إلى معتقلها؟

كيف لي أنا التي تربيت، ورأيت بأمّ عيني وروحي تفاصيلَ الاعتقال والعذاب، وأصرّ أن أظلّ داخل سجني برغم من أنّي متحرّرة في الظاهر؟

ولم أجد إجابةً غير أنْ لا جديد على وجه الأرض، والتّاريخ يكرّر نفسه، ونحنُ كالقطيع نساقُ ببرمجة غبيّة دون أن نواجه أنفسنا حتّى بسؤال لماذا؟

ونزلتُ إلى العمل، وحاولت أن أتناسى حزني المتشبّث بقلبي كشوكةٍ في خيط من الصوف.

وأنا أركبُ سيّارتي وجدتُ ما لم أكن أتوقّعه لحظة، أحمد ينزل من عمارةٍ قريبة منّي هو وزوجته وأبناؤه.

من هوْل الصّدمة شعرت أنّ قلبي توقّف عن الخفقان، وانحبست أنفاسي، وتسمّرت مكاني.

ووجدته هو نفس الشيء، لم أدرِ كمْ مرّ من الوقت، ولكنّي تمنّيت أن لا يمرّ، تمنّيت أن أجري وأرتمي بين أحضانه، وأقول له إنّه كانَ الحياة وبعدَه مات كلّ شيء.

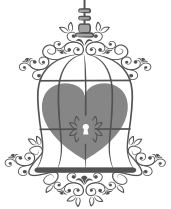

استفقتُ على صوت البوّاب: في حاجة يا مدام؟ إنتِ واقفة كده ليه؟!.

استجمعتُ قواي، ونظرت لأحمد نظرةً وكأنّي لم أبالِ بوجوده، وذهبت إلى عملي بأنفاس متقطّعة، وفرحةٍ عارمة، لا أعرف لماذا؟ وهو في الواقع أصبح بعيدَ المنال.

كلّمت آسر، وطلبت منْه رقمَ هاتفه، تعجّب آسر ورفضَ في البداية، ولكن بإلحاحي الشديد استجاب.

وفي المساء، تردّدت كثيرًا أن أطلبه، ولكنّي عقدت العزم، وفعلتها: أاا أحمد، عامل إيه؟

أحمد (بصوت لم أسمع مثله من سنوات): وحشتيني قووووووي، فرحت قووووي إنّي شُفتك، حسّيت إنّ روحي ردّت فيّ من تاني.

أنا: أمّال أنا أقول إيه! أنا حسّيت إنّي كنت عايشة في أبيض واسود، وفجأة بقت الدّنيا كلها ألوان. ليه سبتني؟ ليه اتخلّيت عنّي؟ إنتَ عارف إنّ انتَ كنت الأمل الوحيد في حياتي، إزّاي هُنت كده؟

أحمد: خلّينا نتقابل ونتكلّم، ونحتفل بنجاحك اللّي أنا متابعُه أوّل بأوّل علشان تعرفي إنّي عمري ما سبْتِك.

أنا: خلّينا نتقابل يوم السّبت، مناسب ليك؟ هتعرف تهرب من مراتك؟

أحمد: أيّ وقت هيكون مناسب، وهعرف أخلّيه مناسب يا ملاكي.

أنا: يااااااااااه، وحشتني قوووووي الكلمة دي.

أحمد: بحبّك.

وأغلقت السّماعة، وشعرت وكأنّي لم أتنفّس منذ سنوات، وأنّ الدّنيا فُتحت على مصراعيها، وشعرتُ ببروده تستشري داخلي تطفئ نار الانتقام، ولا أرى أمامي إلّا وجهَ زوجته المقيت عندما تعلم أنّنا عُدنا، وأنّي أنا الأبقى بداخله، برغم أنها الأقرب إليه، فرحة لا تكفي سنوات لوصفها ولا كلمات.

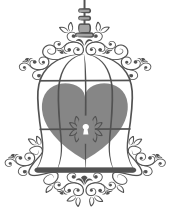

صراعاتٌ رهيبة عشتُها تلك اللّيلة، حبّ يملأ الكون، وشعورٌ بالانتقام بملء الكون في نفس الوقت.

وجاء اليومُ الموعود، وتقابلنا، وظلّ متعلقًا بيدي كالطّفل الذي وجد أمّه بعد طول غياب، ولا يريد أن يتركَها، وأنا برغم الحنين الذي يقتلني إليه إلّا أنّ شعور الانْتصار كان أطغى، ممتزجًا بشعور الحزن على نفسي، وشعور اللّوم عليه لأنّه هو مَن وضعنا في هذا الموقف.

وفجأة، انهمرتُ في بكاءٍ شديد، لم أبْكِه منذُ سنوات وسنوات، وظللتُ أصرخُ فيه:

ليه عملت فينا كده؟

دلوقتِ بقيت أنا المتّهمة والوحشة اللّي هتخطف راجل من بيته!!

آدينا وصلنا لنفس النتيجة، وبقينا لبعض، ليه سمعت كلام الناس؟ من إمتى وانتَ ضعيف كده!؟

وضع يدَه على فمي، ومسح دموعي، وقال: لأنّي كنت خايف أخسر أبويا، أبويا ما كنش يستاهل أكسر قلبه، إنت ما شُفتيش لمّا عرف عرضك، وإنّي موافق عليه عمل إيه، كانت أوّل مرّة يضربني الضّرب ده في السنّ ده، وهدّدني إنه مش هيعرفني هو ولا أهلي، وعمره ما هدّد كده، خفت يعمل كده وأعيش عريان بقية حياتي.

أنا: وهان عليك تخسرني عادي، وتروح تتجوّز عدوّتي!؟

أحمد: ما عرفتش أفكّر غير كده، وهي الوحيدة اللّي لقيتها جنبي وأنا فكْري مشلول، الكلّ كان اتخلّى عني نتيجة إنّهم شافوا إنّ أنا خذلتك وطلعت عيّل.. أرجوكِ سامحيني، وكفاية بقى كلام في اللّي فات، اللّي ضاع كتير وهنعوّضه، تتجوّزيني؟

أنا– وبرغم أني لم أقتنع بمبرراته، إلّا أنّي كنت لا أريد شيئًا غير أن أصدّقه، استطردت قائلة: ومراتك وعيالك هنعمل فيهم إيه! واللّا هتتجوّزني في السّر؟

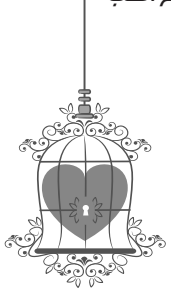

أحمد: سرّ!؟ لا طبعًا، إنت أغلى عندي من أيّ حاجة، وطزّ في أيّ حاجة، كلّ اللّي كان بيهمّني أبويا، وأبويا مات.

أنا: سبني أفكّر.

وبتّ طول الليل أفكّر في وجهها المقيت، وهو ممتزج بالحسرة.

وأفكّر في أبي الذي فعل نفس الفعْلة، وكنت أنا السدّ المنيع في وجهه، واتّهمته بالخيانة.

وبداخلي حوار بين صوتين:

الأوّل: كيف وصلت إلى هذا الحدّ من البشاعة النفسية؟ كنت أكثر ما أكرهه الخيانة، الآن سأفعلها ولا أبالي!

والثّاني يردّ عليه: من خنتهم هُم مَن ابتدوا بالخيانة، مَن منهم شعر بي وتردّد في إيذائي؟

مَن منهم يشعر بوحْدتي الآن، وعمرى الذي يسرَق منّي؟

وأخيرًا، أخذت القرار، فليذهب الجميع إلى الجحيم، وتظلّ روحي حيّة سعيدة بمَن تحبّ.

وتوصّلت إلى أن أتزوّجه، ولكن هذا لا يكفي، بل سأفعل حفل زفاف كأيّ بنت، بل سيكون زواجًا أسطوريًّا.

وفي الصباح هاتفت أحمد: أنا موافقة على الجواز، بسّ بشرط...

أحمد: ائمرُي يا حبيبتي.

أنا: هعمل فرح، وفرح كبير.

أحمد: موافق، وكلّ أحلامك أوامر.

مهْما أصف لك فرحتي بموافقته التي لم تأخذ ثوانٍ لن أجدَ كلمات، وعلمت فعلًا أنّه يحبّني بجنون، ولا يريد غيري، ولا يبالي بالنتائج مهْما كانت.

وأصبح يجول في خاطري فرحتي بقهْر زوجته، ونظرة مجتمعي البغيضة، فأنا الآن ذات الاثنين والثلاثين عامًا، وسأتزوّج من حلمت به بحفل لم أتخيّله، وأنا صاحبة العشرين، ومِن شابّ وسيم في نفس عمري.

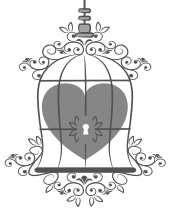

سحقًا لك أيّها المجتمع الكئيب البائس الذي فرض على صاحبة هذا السنّ مسمّى (عانس)، هذه العانس تتزوّج الآن أحسن من زيجات صاحبات العشرين، موتوا بغيظكم.

أخبرتُ أمّي، بكت كثيرًا وأصبحت عاجزة ما بين مصلحة ابنتها وبين أنّها شعرت بشعور تلك الزوجة، وبدأت تلومني وهي تتمنّى أن لا أستمع للوْمها.

وكأنّها لم تقلْ شيئًا، وأخبرتها أنّي ماضية في طريقي مهْما كلّفني الأمر، جاء وقتي ولنْ أهزَم، وأفضّل أحدًا على راحتي، سأفعل مثلَ الجميع، أماني القديمة ماتت، ولن تعدْ مرّة أخرى.

وبدأتُ التّحضير لهذا الحفل الأسطوري الذي أقسمتُ أنّه سيكون حفلًا لم يمرّ على أحد أعرفه، وصمّمت فستاني عند أكبر مصمّم، وطلبت من أحمد أنّني أريد خاتم خطوبتي لم يرتديه أحدٌ من أقراني حتّى ولو أساعده فيه، ولم يتوانى عن تلبية جميع طلباتي، وكأنّه يريد أن يكفّر عن ذنبه، أو كنتُ أظنّ ذلك.

وتتوالى الأحداث بشكل مُتسارع كعادة دنيتي، وبدأت زوجتُه تلاحظ حالته ووهجَ روحه الذي عاد إليه فجأة، وبدأت تراقبُه حتى وصلت للحقيقة.

وجدتُ هاتفي يرنّ، مكالمة من أحمد السّاعة السابعة ليلًا، وهذا الموعد تكون هي معه، فعرفت أنّ أمرنا قد كُشف، وفرحت جدًّا جدًّا، كنت منتظرة هذه اللّحظة بفارغ الصبر، ولكنّي لم أكن أريد أن تأتي وأكونُ أنا السبب فيها لكي لا يلوم أحمد عليّ بتاتًا.

أنا بمنتهى الخبث: آلو، أيوه يا حبيبي.

زوجته: حبيبك مين يا خاينة يا حرامية يا خرّابة البيوت.

أنا (بضحكة عالية): مبسوطة قوي إنّك حاسّة الإحساس ده، ولسّه ما شوفتيش حاجة.. من الأوّل كان لازم تعرفي إنّنا لبعض، والدّاخل بينا خسران، ما سمعش صوتك تاني.

وهي تصرخ.. وتصرخ، ولا أفهم ما تقول، وأغلقت الهاتف، وبداخلي كمّية من التشفّي والسّعادة غسلت كلّ أحزاني، وكأنّ ما مرّ مِن مُرٍّ لم يَمُر.

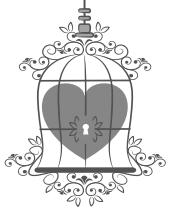

بعد أربع ساعات، وجدت رقمَه مرّة أخرى: آلو، أيوه يا حبيبي.

أحمد: عاملة إيه؟ أنا آسف أنا سبت الموبايل، وما كنتش اعرف إنّها عارفة.

أنا: حبيبي ما تبرّرش خالص، ده شيء أنا مستنّياه من بدري ما تشغلش بالك، خلّينا مركّزين على فرحتنا.

أحمد: هي دلوقتِ سابت الولاد وطالبة الطّلاق، وده همّ لوحده، هسيبهم مع مين، وشغلي وتجهيزات الفرح، و.....

أنا: ولا يهمّك، أنا هشيلهم كأنّهم ولادي، كفاية إنّهم حتّة منّك.

أحمد: طب تفتكري هيتقبّلوا ده؟

أنا: سيبهم مع طنط، وأنا هعدّي عليهم، وشويّة.. شوية هيتعلقوا بيّ.

أحمد: بسّ ماما زعلانة.. واللّا أقولك سيبِك، هفهّمها إنّي لقيت حياتي خلاص، وهي بنفسها كان على يدّها كلّ حاجة.

وبدأنا في تنفيذ خطّتي، بدأت أتقرّب لأبنائه بالتّدريج، وبرغم رفض أمّه الظّاهري لي، إلّا أنّي كنت أشعر أنّها فرحة لفرحة ولدها.

وبالفعل، بدأ الأولاد يسألون عنّي حينما أغيب عنهم، فأنا حقيقة كنت أشعرُ بعاطفة تجاههم، أظنّهم كانوا يشعرون بها، ممزوجة ببعض القسوة أحاول أنْ أخفيها لأنّي أرى فيهم أبناء عدوّتي، ولكن تعاطفي معهم أنْ لا ذنب لهم كان أكبر.

ومرّت شهور، وأصبح الآن الحفلُ على أتمّ الاستعداد ليقام، وهي تظنّ أنها بغيابها تضغطُ عليه، ولا تعلم أنه قرّر أن يتحرّر هو الآخر من أيّ شيء يسجن روحَه، حتى ولو كان أولاده.

واقترب موعدُ زفافي، كنت قلقةً بشكل لا يوصَف من مسئولية أبنائه، ومن نفسي حينما أنجب، ولكنْ طمأنتُ نفسي أني تعوّدت على المسئوليات من صغري، فلماذا القلق؟! فدائماً ما كنت أعاملُ الجميع على أنّهم أبنائي، وأنا لا أفهم معنى الأمومة بعد.

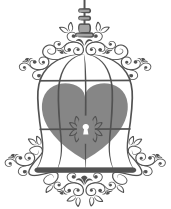

إذًا، لماذا أحاول أن أنغّص فرحتي بوساوس فارغة؟!

أمّه وأمّي يحذرانا من مغبّة قرارنا، كلّ منهم يرى الموضوع ليس من مصلحة أحد، والجميع يحذّرنا، ولا أحد يوافق على قرارنا نهائيًّا، ونحنُ نضرب برأي الجميع عرضَ الحائط، ولا نرى ولا نسمع غيرَنا.

وحدّدنا موعد الزفاف، وكان بحقّ حفلًا لم أرَه في حياتي، كان قلبي يكادُ يخرجُ من بين أضْلعي من شدّة الفرح.

أيُعقل أن تبتسم لي الدّنيا، وتحقّق حلمًا واحدًا من أحلامي، وأيّ حلم؟!

إنّه الحلمُ الوحيد الذي تمنّيت من الله أن يحقّقه.

إنّه الحلمُ الذي دمّرني وبناني في نفس الوقت.

إنّه الأمل واليأس على حدّ سواء.

كنت أرقصُ بفستاني الذي كان كملبسِ الأميرات، وكأنّ الأرض هي التي ترقصُ من تحتي، كنت لا أرى في الحفل غير نظراته المليئة بالفرحةِ التي لم أرَها منذ زمن بعيد.

شعرتُ أنّ الحياة والشّمس والقمر، وكلّ ما حولي يرقصون من أجلنا.

أتعلّق برقبته وأنا الشّديدة الخجل، لا أعبأ بوجود مَن حولي، وكأنّني أخاف أن يتركني مرّة أخرى.

وانتهى العرس، وكانت مفاجأته لي أنّنا سنطير اليوم إلى المالديف، ولن نذهب إلى بيتنا، صدّقيني شعرتُ أنني اليوم ذات التاسعة عشر حينما التقت أعيننا.

وهناك، تصافينا وذبْنا في عشقنا، ونسيت كلّ ما فعله، بل أكادُ أقول إنّني كنت على وشك أنْ أسامح أبي من طاقة الحبّ التي كانت تملؤني.

الرّحلةُ العاشِرة

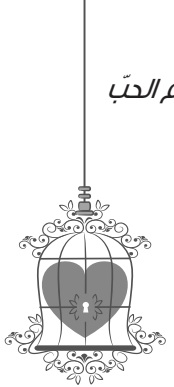

رجعنا إلى القاهرة وبدأتِ الحياة الحقيقيّة التي طالما استخدمت الحيل للهروب من تخيّلها.

امرأةٌ لم تترك قضيّة إلّا ورفعتها عليه حتى حرمته من رؤية أبنائه، وعملي الذي لا بدّ أن أعود وأنخرط فيه، وعمله الذي لا بدّ أن يضاعف ساعاته ليعوّض المال الذي أنفقه عليّ، فكان يرفض أيّ مساهمة منّي في أساسيات حياتنا.

وازددتُ تركيزًا على الاهتمام ببيتي لأعوّضه عن شعور الحرمان من أبنائه الذي كنتُ أظنّ أنه سيدركه بعد مرور الشّهور على زواجنا.

ويا ليتني علمتُ أنّ ما أنا فيه هو آخر عهْدي بالفرحة وانشراح الصّدر، تمرّ الأيام بي واكتشفتُ أنّ أحمد شخص شديد الأنانية، برغم كلّ التّضحيات التي كنت أظنّ أنّه قدّمها من أجلي، اكتشفتُ أنّ كلّ ما فعله كان من أجلِه فقط، و كلّ مال أنفقه كان طُعم ليثبت لي أنه لا يفكّر في نفسه.

كان لا بدّ أن أدرك ذلك من مضمونِ المواقف التي مرّت علينا.

موقف التخلّي عنّي بمُنْتهى السّهولة، موقف تخلّيه عن أبنائه أيضًا بمُنْتهى السّهولة، كان لا بدّ أن أدرك أنه شخص يسعى من أجل مصلحته ورغباته فقط، شخص جبان لا يقوى على مواجهة أيّ موقف إلّا بالهروب المؤلم لمَن حوله.

بدأ الصّراخ يسكن منزلي الذي كنتُ أحلم أنّه الجنة، أيّام كثيرة مُنعت من نزول عملي برغم أنّه كان يعلم موقعي وأهميته في شركتي، وكنت أرضخ لطلبه ظنًّا منّي أنني أحافظ عليه وأسعده.

أيّامٌ تمرّ ولا يخلو يوم من معايرتي بما فعل من أجلي من ترك أبنائه، وصرف ماله، وزواجه لي برغم أنّني كبيرة في السّن، كانت تلك الكلمات تقتلني، وأبكي الليالي الطّوال من هوْلها على نفسي، ولكنّي لا أفعل شيئًا غير التربيت على كتفه، ولا أقوى حتى على رفع صوتي عليه.

يا لسخرية القدر.....

سجنٌ جديد قادتني قدماي إليه مرّة أخرى، وبمُنتهى الإصرار منّي، ولكنّ الفرق بين سجن الماضي والحاضر أني مدركة أني سُجنت، ولكنْ لحسابات أخرى؛ بل والأدْهى والأمرّ أني لن أقوى هذه المرّة على التحرّر منه مهْما فتحت ليّ الزنازين.

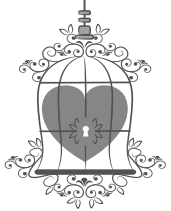

فتبًّا لتلك الضّغوط التى يكون مصدرُها الاحتياج المعنوي، الذي يسلب منّا شجاعة الانسحاب مهْما تجرّعنا المرّ.

أخبرني عقلي حينها أنْ ألوذ بالفرار، فأنا لا أحتاج منه أي شيء، فالآن أنا أستطيع أن أتزوّج مَن أريد، سأجد- إن أردت- مَن يتزوّجنى من أجل مالي، أو وضعي الوظيفي، وأكون أنا المسيطرة حينها، المتحرّرة اليد والروح.

ولكنْ سرعان ما أخبرني قلبي أنّي لن أقوى على فراقِه مرّة أخرى، فأنا أدمنت حبّه مهْما دمّرني، وأيضًا لا أقوى على شماتة من أحد.

وبين هذا الحوار اليومي الذي يدور بيني ونفسي، سلّمت بأنّي سأستمر، فالبيت مغلَق علينا، ولا أحد يعلم ما به وما بي من حزن، ويكفيني صورنا وقصتنا التي ينبهر بها كلّ مَن يشاهد صفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي.

أصبحتُ الآن مزيفة أكثر من ذي قبل، ظاهري لا يمتّ بأيّة صلةٍ لداخلي.

تلك القوّة والشخصية المرحة المزيّفة رماد، أيّ نسمة هواء ستخفيها من الحياة، شعرت بالوحدة أكثر وأكثر، وأصبح يومي منحصرًا ما بين عملي وتجنّب أيّ شيء يثيره كي لا يعكّر صفو يوْمي بصراخِه وكلماته القاتلة.

أصبحتُ الآن أترنّح بين معتقلات الحبّ والخوف والكُره والحزن كلّ يوم، وعلى حسب أحداثِ يومي، ولكنْ ما زال بداخلي بصيصٌ من أمل، أيّ أمل!! لا أعرف.

وبدأتُ أصدّق أنّ كلّ منّا له حظّ من اسمه، فكأنّي لا أستطيع أن أعيش دونَ أمنيات.

وبعد مرور عامين على زواجنا، علمتُ أنّني حامل، لا أستطيع أن أصفَ لكِ فرحتي العارمة، وبدأتُ أصدّق آمالي، وسبب وجودها.

حمدتُ الله أنْ خلق لي الحدثَ الذي سيغيّر أحمد، ويربطه بي أكثر وأكثر، ويعوّضه عن حرمانه من أبنائه الذي يتغنّى به.

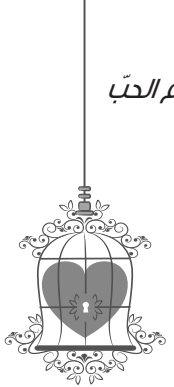

انتظرتُ عودته، ليدخل بوجهِه العابس كالعادة، ووجدني مبتسمةً وأنظر إليه.

أحمد: خير ما لك فرحانة قوي كده ليه؟! ووشّك منور!.

أنا: تفتكر ليه؟

أحمد (بتهكم أخافني): ليه؟ واخلصي علشان أنا راجع تعبان ومش طايق نفسي.

أنا (بابتسامة مفتعلة): أنا حامل.

أحمد: وازّاي وانتِ في السنّ ده؟

أنا (متجاهلة الإهانةَ كعادتي، وكأنّي أعتبره يهازحني): محسّسني إنّي خمسين سنة، أنا لسّه في عزّ شبابي يا حبيبي، أنا اللّي زيّي لسّه بيتجوّزوا.

أحمد (بسخرية شديدة): آه صحيح ما كنتش اعرف، عامّةً.. أنا رأيي إنّ مالوش لازمة، مفيش وقت نربّي ونكبّر فهيتظلم، حاولي تتخلّصي منّه، ويلّا تصبحي على خير، أنا داخل أريح شوية.

كانت تلك الجُمل القشّة التي قصمت ظهرَ البعير برغم تفاهتِها مقارنةً بإهاناته السّابقة، لم أشعرْ بنفسي إلّا وأنا أصرخ فيه، وأبكي بهستيريا: حرام عليك، ليه كده؟

عملت إيه؟ إزّاي اتخدعت فيك كده؟

إنتَ شخص مريض أناني، ربّنا ينتقم منك.

ولم أفقْ من صراخي إلّا على صفعةٍ على وجهي تلتْها رَكَلاتٌ وركلات، ولم أبكِ حينها وكأنّ أبي عاد من جديد، نفس الأحداث ولكن باختلاف الأشخاص.

مِن هول الصّدمة، كنتُ أنظر إليه وكأنّي لا أتألّم، وهو كأنّه في غيبوبة لا يرى أحدًا.

وفجأةً رفع يده من عليّ، ونظر إليّ بتعجّب، وكأنّه خاف أن أكون رحلت من الحياة لأنّي لا أستنجد بأحد، ويا ليت ما توقّعه كان حقيقة لأستريح من تلك الحياة البائسة.

نظرتُ إليه نظرةً مليئة بالحزن والذّهول واللّوم، وهممتُ بالقيام، وإذا بي أشعرُ بألم لم يسعفني على أن أغرب عن وجهه كعادتي مع أبي.

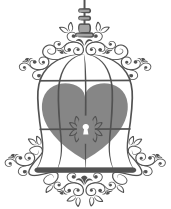

وما فاجأني أنّه ظلّ يبكي ويبكي، ويحاول أن يضمّني إليه ويعتذر، ويُقسم أنه لا يدري كيف فعلَ ذلك، وغبتُ أنا عن الوعي.

لأجدَ نفسي في المستشفى فاقدةً جنيني، والجميع حولي، وهو ينظرُ إليّ ويتوسّل بنظراته أن لا أتكلّم.

خرجتُ يومها من المستشفى صامتة، وظللتُ كذلك لمدّة ثلاثة أيام، حتّى الكلام مع نفسي لا أستطيع أن أفعله.

ماذا أقول لنفسي، أؤنّبها وأجلدها لأنّ النهاية متوقّعة، أم أواسيها في حظّها العثر، ودنيتها البائسة، فاخترت الصمت والتفكير في لاشيء غير الانتقام.

وهو في كلّ يوم يتذلّل أنْ أغفر له، ويُقسم أنها لن تتكرّر.

وبرغم أنّي كنت معتادة على تلك الرّكلات من أبي، إلّا أن وقْعَها كان عليّ تلك المرّة مختلفًا، وكأنّي لم أعد أتقبّل على صورتي الجديدة كلّ تلك الإهانات.

وفي اليوم الرّابع، وجدتُ نفسي أهاتف المحامي لأخبرَه أنّي أريد أن أرفع قضيّة خلع، لم أحاول أصلًا أن أطلب الطلاق، كان بداخلي إصرارٌ لردّ الإهانة بإهانةٍ مساوية، ويكفي أني لن آخذَ منه شيئًا، كنت أرى في ذلك منتهى الرحمة التي لا يستحقّها.

لم أخبرْ أحدًا بما فعلته، وبعد ثلاثة أسابيع جاء المحْضر إلى عمل أحمد ليخبره، جنّ جنونُه، من هذه القوة المفاجئة التي لم يعْهدها فيّ.

أحمد كالمجنون يدقّ جرس المنزل، فتحت له: إنتِ ازّاي تعملي كده؟ أنا كنت فاكر إنّها هي...

إزّاي نازل الصّبح ومسلّمة عليّ!! إزّاي ما بنش عليكِ!.

أنا (بمنتهى الهدوء): وطّي صوتك لأنّي مش هسمح بصوت عالي في بيتي، ولمّ هدومك، وبهدوء تمشي لو سمحت.

وما تحاولش تكلّمني أو تعمل أيّ ردّ فعل، أنا لسّه مصرّة يفضل بينا آخر شعرة احترام وذكريات كويسة.

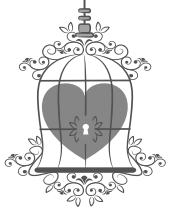

وفي ذهول فعلًا نفّذ طلبي، ولم يتفوّه بكلمة، وكان يسير مطأطئ الرّأس إلى الغرفة، والدّموع تملأ عينيه.

وفي طريقه إلى باب المنزل، قال لي: إنت ما فكّرتيش أنا هعمل إيه؟

ما فكّرتيش في منظري قدّام ماما وولادي وشماتة طليقتي، إزّاي هُنت عليكِ كده! كلّ ده علشان غلطة واحدة؟

والعجيب أنّي وجدت بداخلي بقايا من رحمةٍ تجاهه، ولكنّي تظاهرت بالقوّة: لأ ما فكّرتش زيّ ما انتَ مافكّرتش، وحرمتني من أكتر حاجة حلوة كنت محتاجاها، اتفضّل برّه.

ورحل أحمد، وكنتُ أتمنّى أن يقاوم ولا يرحل، كنت أريدُه يطيل الحديث لكي أصفَى له وأسامحه.

رحلَ حبيبي وقاتلي، ورحلتْ معه كلّ فرحة، وكلّ متعةٍ للحياة انتظرتُها دهرًا، حتّى الذّكريات التي كانت تغذّي الأماني داخلي رحلتْ أيضًا.

أيقنتُ- الآن- أنّ ما شعرت به من خوفٍ في خضمّ فرحتي في أوّل لقاء بيننا كان هو الشيء الصادق الوحيد في حياتي.

أغلقتُ قبري عليّ، أقصدُ منزلي، وأجهشتُ في بكاء لم أبْكِه منذ زمن بعيد، حتى غلبني النوم، لأستيقظ في يومٍ جديد أسجنُ فيه نفسي داخل أعمالي.

النّهاية

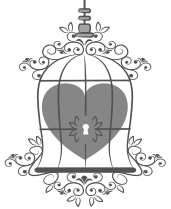

والآن- يا سيدتي- بعد مرور تلك الآلام على قلبي الذي كان بريئًا، وكنت أظنّ أنّ طيبته ستكون مدخلًا لفرحتي، أريد أن أعترف لك أنّ ذلك الأمر لم يكنْ يستدعي كلّ تلك المعاناة التي عانيتها في حياتي.

الآن، وبعد هدوء حدّة آلامي، اكتشفت أنّ أحمد لم يكن مميّزًا عن الرجال، ولكنّ حبّي الشّديد وتعلّقي المرضي به كان سببًا في تميّزه في عيني.

ولكن.. ما فائدة هذا الاكتشاف العظيم بعدما ضحّيت بعمري كلّه، وبيت هادئ كان مُمكن أن يكون بيتي لو أنا الزّوجة الأولى مع محمّد.

بعدما كنت السّبب في خراب منزل كان مقامًا حتّى ولو كان هشّ القوام من أجل وهمٍ كبير اسمُه الحبّ الأوّل والأخير.

أنا الآن يا سيدتي من وجهة نظر البعض، كنتُ استعدت حقّي المسلوب من الجميع، حصلت على كلّ شيء حلمت به؛ منصب ومال وانتقام، فكان لا بدّ أن أتحمّل قليلًا.

ولهؤلاء أقول: إنّ مَن يعيش سعادةً زائفة، سيصلُ مهْما بلغت مدّة تحمّله إلى النهاية التي كنت أهربُ منها.

ألا وهي التخلّي عن جميع القيود مهْما كان التخلّي مكلّفًا ومدمّرًا له، ولأقرب الأشخاص إليه.

مهْما كان التخلّي سببًا في موته وهو على قيد الحياة.

وللجميع أقول: اعلموا أنْ لا أحد تتوقّف حياته من أجل أحد، إلّا مَن يعيشون في المدينة الفاضلة.

فأشدّ المحبّين لا يملكون غير الشّفقة حينما نسجنُ أنفسنا في حياة الآخرين، ويمضون في طريقهم بعدها، فأقصى ما قدّموه لي اللوم عليّ بين حين وحين.

أمّا أنا فأعيش في حالة التمنّي، وأحلم بالعودة لنفسي القديمة ذات الرّوح الطفلة والسّلام الداخلي.

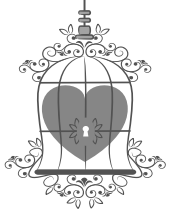

ولكنْ هيهاتَ بعدما سمحت لطاقةِ الكراهية تجتاح نفسي وتأسرها.

ولا أعلم هل أشعرُ بذلك لأنّي وصلتُ إلى ما وصلت إليه بعدما أنهكتُ روحي ففقدتُ قيمة وطعمَ أيّ إنجازٍ فعلتُه، أم لأنّي سلبت حقّ غيري، أم ماذا.. لا أعلم؟

ولكن كلّ ما أعلمُه أنّي اليوم أعيش في دوّامة من اليأس والأحزان واللامشاعر، وأدفع فاتورة لم أستمتع بمنتجها، وأنّي سئمت الحياة برمّتها، وأنّي دونَ مبالغة أطحنُ بين رحايا العودة لسابق عهدي، أو أن أكمل بتلك النفسيّة المشوّهة.

والمُضْحك المبكي، أنّي برغم كلّ ذلك لا زلتُ أحبّ أحمد، ولا أقبلُ برجلٍ غيره في حياتي، وأرى أنّه كان الضحكة الصادقة المتبقّية في حياتي.

وفي النّهاية، أشكرُك أنك سمحتِ لي أن أسردَ ذلك القدر من أوجاعي، التي قرّرت أن تكون رسالتي هذه آخرَ عهدي بها، وبعدها سأدفنُها، وأحاول- بكلّ جهدي- أن أقيم عليها صرحًا جديدًا.

أتمنّى أن أستطيع أن أجعلَه صرحًا ناضجًا متّزنًا صلبًا أمامَ الأزمات المنتظرة، فأنا لم أعدْ أقْوى على أن تستعيدَ نفسي كلّ هذه الذّكريات مرّةً واحدة مرّة أخرى.

والآن، سأرحل تاركةً لك رسالتي، واصفةً لك فيها ما حدثَ في نفسي وعقلي بسبب ما يسمّونها تربية، علّها تكون الصرخة الأخيرة التي يستفيق على أثرها آباءُ وأمّهات المستقبل، فننقذ نفوسًا معذّبة لا تقوى على المواجهة الحاسمة إلّا مع نفسها المهزومة.

رسالةٌ فيها قصّتي كاملة، قصّة حياتي التى كنت أظنّ أنّ أفعالي وإصراري عليها ستقودني إلى الحياة التي افتقدتها مع أبي، ولكن كلّ خطواتي فيها عادتْ بي إلى سجن الطّفولة سجن مليء بأمراض نفسيّة وعقد انتقام من كلّ شيء، ومن نفسي قبل أي شيء.

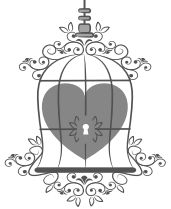

قصصتُها عليك بتفاصيلها لعَرْضها على قرّائك ليتعلّم منها الجميع، ونطلق منها صرخاتٍ.. كفانا سُجناء باسْم الحبّ والخوف والتّربية.

صرخاتٍ لآباءَ وأمّهاتٍ ومجتمعٍ مَفادها:

أنّ القهر والإرغام على تنفيذ أهدافكم ليس حبًّا؛ بل قضبان خلفها الكثيرُ من الآلام.

يكفيكم أن تحتضنوا أبناءكم، يكفي جدًّا أن توضّحوا وتناقشوا رؤيتكم، وتتركوا بعدها العَنان لشخصياتهم.

اجْعلوا في قناعاتكم أنّهم كائناتٌ حيّة تشعر وتتنفّس بالحرية، وليس آلات تنفّذ ما تريدون أنتم.

وأقدّم من خلالها رسالةً للسّجناء:

لا تسْجنوا نفوسَكم وأرواحكم في حبِّ شخصٍ واحد، سيكون الفراق سجنًا آخرَ لكم، ستعتادوا العيش وراء قضبان الحبّ أو الحزن، تعلّموا المرونةً ليستطيع مَن يستحقّ أن يشكّل خريطة حبكم .

وأريد أن أتحلّى ببعض الشّجاعة، وأخبر الجميع أنّ عمري ضاع هباء، ولم يكنْ ما حدث يستحقّ كلّ هذا العناء، وأن ألقي بنفسي في دوّامة البحث عنه.

وأنّ والدي لم يكن يستحقّ أنْ ألقي بنفسي في دوّامة محاولات الخروج من سجنه، كان عليّ أن أتعلّم فقط من تلك المآسي، وأحفظ ما تعلّمته عن ظهر قلب؛ لكي أدخل في تجربةٍ ناجحة تثقلني وتسعد مَن يستحقّني، ووقتَها فقط سأكون تحرّرت منه.

فعندما ظننتُ أنّي حصلت على كلّ شيء؛ زاد بداخلي خواءٌ يسمع فيه صدى الألم والحزن وتأنيب الضمير.

فقد كانت أمامي الفرصُ لأبدأ حياة جديدة، ولكنّ طاقةَ التعلّق والانتقام جعلت على عيني غشاوةً لا أرى بها مَن يقدّرني.

الخاتمة

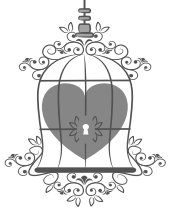

وبعدَ تلك القناعات التي وصلت إليها صاحبةُ الرّسالة، وغيرها الكثيرون، حان الوقت لنطلق جميعًا صرخاتٍ قويةً فوق صرخاتها.

صرخات حاسمة في وجْه القَمع والقهر باسْم الحبّ.

أوّلها: كفانا سجناء باسمِ الحبّ، والخوف، والتربية، و(أنا أدرى بمصلحتك).

أيّ دين، وأيّ عُرف سمحَ بفرض وصايةِ بشر على بشرٍ مثلهم.

صرخة.. مَفادها لقد سئمنا (الاهتمام)، وكرهنا (الحبّ).

تلك المعاني النّبيلة المُدرجة في قواميسكم، والتي لا نعلمُ كيف تتفنّنون في استخدامها كأدواتٍ لاستدراج ضحاياكم إلى معتقلاتكم، ومن ثمّ جلدهم بتلك المسميات.

صرخة.. أبعثُ بها برسالة إلى مساجين الحبّ، وأختصّ بها النساء لأنهنّ أكثرُ مَن يعانين من تلك المشاعر السلبية.

كفاكُم تنازلات من أجل هؤلاء السّجّانين، كفاكم تبريرات لهم. واعلمنَ أنّ الفضل بالوقت سيصبح فرضًا، وفرضَ عيْن، والاعتراض على تقديمه سيجلب لكم مشكلاتٍ أكبر بكثير مِن التي كنتنّ تتجنّبن مواجهتها باسْم (الخوف على زعلهم) أو باسم (الخوف منهم).

ستواجهنَ تلك المشكلات حتّى ولو تنازلتنّ عن جميع حقوقكنّ، فهؤلاء لا يرضيهم ولا يستمتعون إلّا بمزيد من ذلّ غيرهم، فهو مصدرُ قوّتهم ومصدر ثقتهم بأنفسهم.

صرخة.. في وجْه مَن يعاني مِن وجود ذلك الشّخص في حياته، وهو ما زال لم يدخل بعدُ إلى سجنه:

رجاءً.. راجعوا موقفَكم قبل الدخول إلى سجنِهم بأرجلكم، فالذي سوف تخسرونه الآن فقط مشاعر، بالوقت ستلتئم جروحها.

أمّا بعد ذلك، فستصبح جروحًا فوق جروح إلى أن تصلَ إلى تقيّحات يصعب علاجها.

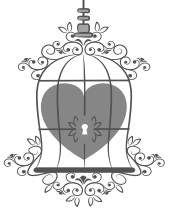

وإليكم بعضُ السّمات العامّة لَمَن أسمَيْتُهم بالسّجّانين؛ علّها تدلّكم على تحديد طريقكم:

ستجدون هؤلاء لا يسمحون لكم بمتنفّس من الحرية، لا بدّ من أخذ الإذن قبل الشروع في أي شيء.

يصرّون على قطع علاقتكم بأيّ شخص بمسمّيات مختلفة، وبعد خطواتٍ ستجدون أنفسكم لم يعدْ في حياتكم غيرهم (سجن انفرادي).

ستجدوهم يقلّلون من قيمة أيّ شخص، الجميع في نظرهم لا يستطيعون فعل أيّ شيء، ولا يفقهون أيّ شيء، هم فقط من يفقهون ويعلمون.

هُم لا يخطئون أبدًا مِن وجهة نظرهم، الجميع مخطئون وهم فقط ضحايا.

هذه السّماتُ العامّة إن وجدتموها هي سلوكهم العام، وحاولتم التحذيرَ وإعطاء الفرص ولا جدوى منهم؛ فتشجّعوا وقرّروا الانسحابَ من تلك العذابات دونَ تردّد.

أمّا مَن ارتبطت حياتُه بأحدٍ من هؤلاء الأشخاص ارتباطًا لا يمكن الرجوعُ عنه بسهولة، فليس أمامك إلّا البحث عن الحلّ وعدم اليأس، وإليكم بعض الحلول:

المصارحة التّامة، وإخبارهم بما تعانون منه، وإدخالهم في حيّز الإدراك بشتى الطرق.

للجميع- وخاصّة المتزوجين الذين يعانون من هذه المشكلة- وضع جدولٍ مشترك فيه كلّ جوانب الحياة لكلّ شريك، وتحديد المهمّات والأدوار الخاصّة بكلّ طرف.

أمّا مَن يرى أنّ المصارحة والمكاشفة لن يجني منها إلّا مشاكل أكثر، وخسارة في علاقته بسجّانه؛ فليس أمامك إلّا وضع خطة غير مباشرة لخلق إدراكه، خطّة بدايتها التّنازل الذي يرضيه، ولكن ما يختلف فيها هو أنّك الآن ستفكّر بهدوء في معنى هذا التّنازل، وتتعامل معه على أنّه وسيلة لتجني منه مقابلَ يصبّ في مصلحتك.

فهؤلاء الأشخاص يكرهون كلمة (لا) لأيّ أوامر يصدرونها للمعتقلين لديهم، فأنتَ بتنازلك المؤقّت ستعطيه شعور العظمة المطلوب، وتبدأ في وضع وسائلَ للحصول على ما تريد بطرقٍ ذكيّة،

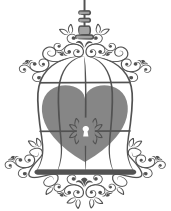

ولكنّ الشّرط الرئيسي في هذا أنْ تتبنّى قناعة أن تنازلك هذا فترةٌ مؤقّتة ستطول أو تقصر حسب برمجة سجّانك على التسلط.

عند الحصول على أيّ تقدّم من هذا الشخص، حتى ولو قدْر أنْمُلة، اشْكره عليه وعلّ من قدره، فأساسُ ما يعانيه هؤلاء الأشخاص، وما يجعلون غيرهم يعانونه؛ هو ضعف الثّقة بأنفسهم.

لا بدّ أن تدرك أنّ جميع ما أطرحه من خطواتٍ ليس أبدًا بالسّهولة التي يكتب بها ويقال، ولكنّ الاستعانة بخالقك، وإرادتك كإنسانٍ ستحقّق ما لا تتخيّل أن تحقّقه.

أمّا الصرخةُ الأخيرة، فهي لَمن يهمّه الأمر ممّن سمّيتهم سجّانين في روايتي:

وماذا بعد؟ وماذا بعد غلقِ النوافذ والأبواب عن مَن تحبّون تحت مسمّيات شتى؟

اعْلموا أنّكم لن تجنوا إلّا مزيدًا من المتاعب والضّغوط جرّاء ما تفعلون، فالجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان.

لن تجنوا من منع الهواء والشمس عن عقول مَن تحبّون إلّا مزيدًا من التعفّن والتأخّر لعقولهم، وإطلاق طاقتهم في ما يضرّكم ويؤذي مشاعركم قبل أن يضرّوا أنفسهم.

وإذا كان المبرّر لأفعالكم أنّكم إذا تنازلتم عن التحكّم سينفرطُ الأمر وتسوءُ الحياة؛ لأنّ مَن تحكِمون قبضتكم عليه لا يرقى إلى مستوى القائد لأيّ أمر.

أو إذا تنازلتم ألحّ عليكم شعورُ الاحتقار، أو عدم الثقة في قدرات الشريك.

راجعوا أنفسكم، وأعطوا لهُم الفرصة لتجديد الفكْر، فخيرُ علاجٍ لاستعادة الثقة في إنسانٍ هي التجربة والإنجاز.

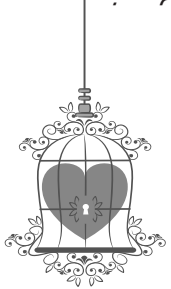

... وقبْلَ أنْ أودّعك ...

عزيزي المتعطّش إلى التحرّر، سأطرح عليك بعضَ الأسئلة التي لا بدّ وأنْ تعيد طرحَها عليك مرارًا عندما تزيّن لك نفسك بقاءك في براثن عبودية المشاعر، أو تلحّ عليك بالعودة إليها:

ألم ترَ أنّ من الحكمة أن تكتفي من هذه الجُمل (سأموت إذا غاب)، (ماذا أفعلُ فهو لا يرحم)، (ماذا بقى في العمر لأنسحب؟)، وما شابهها من جُمل، كلٌّ على حسب سجنه.

ألم ينْمُ لعلمك أنّ الله خلقنا أحرارَ القلب والعقل والنّفس والروح؟

إذًا، لماذا هذا الإصرار على وضْعهم خلف قضبان بمسمّيات مختلفة تندرج كلّها تحت مضمون القهر؟

ألم ينْمُ لعلمك أنّ مَن عاشوا تحت ظلّ العبودية، وجدوا في نهاية الطريق أنّ السجّان يحكم قبضتَه أكثر وأكثر، إلى أن جعلهم يتمنّوا الموت أمام الحصول على حريتهم؟

ألم تسمعْ عن حُرمانية إلقاء النّفس في التّهلكة؟ وأيّ تهلكة من إلقائها رهنَ نفوس أخرى ظنًّا منك أنهم سيحرّرونك؟

ماذا تنتظر من اللامبالين، الكارهين بفطرتهم، الفاقدين لأيّ شعور غير الأنانية، الجاهلين بمعنى الحبّ والتسامح والإيثار؟

ماذا تنتظر من زمان أشدُّ الآلام فيه تأتي ممّن كنّا نسمّيهم السند؟

ماذا تنتظر من زمان أشدّ المخاوف فيه ممّن يُفترض أنهم مصدر الأمان؟

أجبْ يا صديقي، أجبْ ولا تخشَ الإجابة.

صحيحٌ أنّ المواجهة مؤلمة كأيّ رحلة إدراك، ولكن لا تقارن بتلك الآلام التى ستواجهها عندما تقرّر الهروب من هذا الألم الإيجابي.

إجابتُك الصّادقة هي خطواتُك الأولى الصّحيحة التى ستسلكها في طريقك الوَعِر المظلم الصّعب، وخطواتك الصحيحة ستجعلك أنت مَن يمهّده بالمشاعر التي تناسبُك وتقوّيك، ووقتَها لن يسيطرَ

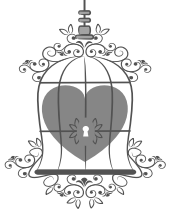

على اتّجاهك أحد غيرك، وسيصبح بعدها لكَ طريقٌ مليء بالنّور والشفافية المطلقة لك قبل الجميع، طريقٌ بعيدٌ عن التخبّط، مهيّئ للصدمات والمفاجآت.

وقتَها فقط، سيكون الفائتُ من العمر ذا قيمة لأنّ أحزانه هي مَن مهّدت لك الطريق، وبالتبعية الباقي منه قيمتُه تزيد يومًا بعد يوم بزيادةِ وعْيك ونضج مشاعرك.

كلّ هذه التفاصيل تحتاج منْك أنْ لا تستلم لخوف سجّانك، مَن تملّكك لحريتك، وأن لا تستسلم لمخاوفك من التحرّر؛ فالعين يصدمها الضّوءُ بعد ظلام دامس، ثمّ لا تلبث تدريجيًّا أن تعتاد عليه، ولا تستلم لذلك الصّوت القادم من أعماقك أنّك لن تستطيع، تعهّد لنفسك أنّك ستكون كما تريد مهْما بلغت التّحديات، فليس هناك مِن خسارة حقيقيّة أو مكسب حقيقي غير خسارة النّفس أو مكسبها.

وفي النّهاية صدّقني لن تجدَ في طريقك غير مَن يصونُ قلبك، أو إنْ شئت قلْ لن تسمح لأحد يقتحم نفسك إلّا مَن يصون قلبك، سيكون ذلك قرارَك الصارم.

ولا تقلق؛ خبرتُك ستجعلك تعرفُهم مهْما برعوا في أداء دوْر البراءة.

..... وأخيرًا .....

أتمنّى أن تكون تلك الرّسائلُ المرسلة من داخل التّجربة الحقيقية، ومن قلب الآلام والصّراعات؛ بمثابة انطلاقةٍ لحياة جديدة لكلّ مَن يقرؤها..

أن تكون محفّزة لمَن يصرّ على عدم مراجعة رأيه؛ بأنْ يراجع مواقفَه، وكيف جنتْ عليه..

أن تكون نقطةَ تحوّل في حياة الكثيرين.

وإلى اللّقاء في رسالةٍ جديدة تتحدّث عن صراعاتِ أشخاص صامتين من أجل الآخر، وكانت مكافأتُهم النسيان.

آمال عطيّة